	بحوث في التربية الإسلامية	الدكتور محمود السيد سلطان

البحث الأول	البحث الثاني	البحث الثالث
مقدمة	**مقدمة**	**مقدمة**
دور التربية في بناء المجتمع الإسلامي	**الدين نظام اجتماعي**	**ما هي المفاهيم الأساسية في الثقافة الإسلامية؟ ولماذا غابت عنا اليوم؟**
موضوع هذا :فصل تمهيدي البحث	**التربية والنظام الديني في المجتمع**	**خصائص الثقافة الإسلامية**
مجالات الدراسة في التربية الإسلامية	**الدين والأيديولوجية الاجتماعية**	**الثقافة الإسلامية والتربية**
منهج البحث في التربية الإسلامية	**الدين في نظر علماء الاجتماع الغربيين**	
الفصل الأول	**الدين والتربية في المجتمع**	
سلبيات ثقافتنا	**أثر شمول الدين الإسلامي وقوة صبغته على الفكر التربوي**	
عدم وضوح الرؤيا الإسلامية :السلبية الأولى	**خلقية التربية في الإسلام**	
السلبية الثانية	**اجتماعية التربية في الإسلام**	
ضعف المستوى اللغوي لدى المسلمين :السلبية الثالثة		
السلبية الرابعة		
ضعف الفهم لبواعث الحياة :السلبية الخامسة		
الصراع الثقافي :السلبية السادسة		
ظاهرة لوم النفس :السلبية السابعة		
الدين الإسلامي عامل تغيير		

اجتماعي ما هي الأسباب الرئيسية في إدخال هذه السلبيات في ثقافتنا **الفصل الثاني** دور التربية في تحرير الثقافة الإسلامية **الفصل الثالث** المحتوى التربوي الإسلامي		

مقدمة

دور التربية في بناء المجتمع الإسلامي

مجالات الدراسة في التربية الإسلامية

تأليف

الدكتور محمود السيد سلطان

أستاذ أصول التربية المساعد جامعة عين شمس

١٩٧٩ دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه البحوث ضمن مجموعة من الدراسات والبحوث لإبراز مفاهيم التربية في الإسلام. وقد حرص الباحث فيها أن يستخلص من الإسلام فكره التربوي وأن يقدمها للقراء, والدارسين, وطلاب التربية في مجتمعنا الإسلامي لعله ـ بذلك ـ يسهم في بناء الأمة الإسلامية المعاصرة عن طريق التربية. ولعله يسهم في تحديد معالم الاستراتيجية التربوية الإسلامية.

وقد أختار لكل بحث قضية من القضايا التي تختلط بشأنها المفاهيم في العالم الإسلامي المعاصر. وناقشها لكي يستخلص المفاهيم التربوية منها في ضوء متغيرات العصر, ومعطياته.

وإيمان الباحث بالله, وإيمانه بقدرة الإسلام العبقرية المعجزة على بناء قيم للحياة, بها تستقر, وتستمر وتتقدم وإيمانه بأن العقل والنقل في الإسلام لا يتناقضان إلا في العقل السقيم. وإيمانه بأن ضوء الشمس لا يمكن أن تنكره إلا العين غير المبصرة , وأن طعم الماء الطبيعي لا ينكره إلا الفم السقيم:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

إن إيمانه بكل ذلك هو الذي دفعه إلى ارتياد هذا الطريق المشرق المضيء. طريق الإسلام وفكره التربوي الذي لا ينكره إلا الذين يقعون فريسة النظرة الضيقة والجهل بفكر الإسلام, وعمقه وأصالته, وتجدده المستمر, وحفزه القوى لدوافع الحياة, وقدرته الفائقة على بناء الإنسان بناء متكاملا قوياً لا يناظره بناء بشرى آخر في أي منهج لتربية الإنسان.

وهذا الإيمان لم يكن للباحث عن طريق عاطفي وإنما قد تمكن من الباحث عن طريق الدراسة والبحث المتأني. ولذلك فهو ثمرة البحث, والتمثيل والتقصي. وهناك فرق واضح بين أن يدرس الإنسان بعد أن يؤمن, وأن يؤمن بعد أن يدرس. والإسلام يسمح بالمدخلين لأن فيه قوة العاطفة وقوة العقل.

ودراستنا لهذه القضايا البحثية التي نعتزم دراستها قد لا تكون المناقشة لها مكتملة ومستوعبة لجوانبها كلها, وإنما هي بداية. وكل بداية صعبة ورحلة الألف ميل أولها خطوة فلعلنا بها نخطو الخطوة الأولى ولعلنا بها نستثير تفكير المفكرين لمناقشتها وطرح الأسئلة بصددها حتى تكتمل جميع جوانبها وهذه هي الغاية النهائية من ارتيادنا لهذا المجال الخصب المثمر.

والله الموفق لما فيه خير الإنسان والبشرية... **محمود السيد سلطان**

البحث الأول

دور التربية في بناء المجتمع الإسلامي

دراسة لدور التربية الإسلامية في التغيير الاجتماعي

فصل تمهيدي

المقدمة

موضوع هذا البحث:

استهدف المجتمع الإسلامي في جميع عناصر ثقافته لمحاولات غزو؛ مخطط لها بشكل علمي تارة, وبشكل لا أخلاقي تارة أخرى. وفي هذه المحاولات كان الإطار الثقافي[1]١, وكانت العناصر التي تنتظم تحت لوائه محل هجوم مركز.

ولم يكن هذا الهجوم نظرياً, وإلا لتراجع أمام صلابة وقوة عناصر ثقافتنا, ولكن كان هجوماً عملياً يغلف بأغلفة مع التشويق ومن الاستشارة الحسية, والجنسية, والعاطفية. وبالفعل تمكنت منا عناصر ثقافية نالت من كثير مما نحرص عليه من قيم, وعادات وأساليب حياة إسلامية. وهزت هذه الغزوات إلى حد كبير ـ أساس عقيدتنا كإطار للحياة, وإن ظلت تربطنا بها في كثير من الأمور, ومن خلال كثير من زواياها وأربطتها المتينة.

واستمر هذا الغزو الثقافي فترة طويلة من الزمن حتى أصبحت نتائجه جزءاً من حياتنا؛ كما أنه يتطلب جهداً ووقتاً لملاقاته, ونزاله وصرعه, والاقتناع بهذه المنازلة.

ولقد اتخذ هذا الغزو مسارات كثيرة وعديدة مما لا يمكن حصرها, وإنما يمكن تتبع بعضها, وضرب الأمثلة بها.

فلقد كانت وسائط الثقافة المختلفة مواقع هجوم أساسية ورئيسية. فاستخدام المذياع والتلفزيون, واستخدمت الصحف, والمجلات أدوات غزو لحمل العناصر الثقافية الوافدة إلينا, وتكييفها بحيث تدخل في أمزجتنا, وتنال رضا نفوسنا[2]١. ولقد كانت الجامعات مواقع هامة للانطلاق بها ومنها إلى غزو ثقافي في إطاره الجديد. وهو ذلك الإطار الذي يمزق إطار ثقافتنا, ويجعله منسياً بالنسبة لنا. فضلا عن تجاهل أساتذة الجامعات له, وربما عدم فهمهم له. ونظرتهم له على أنه شئ متخلف. ومجرد التفكير فيه, وفي مناهجه يعتبر عودة سلفية, وردة ثقافية, ونكوص حضاري.

ولعله من الأمور الواضحة في مجال الجامعات أن العلم وحقائقه قد أصبح بالنسبة لنا مجالا يبتعد كثيراً عن مجال إطارنا الثقافي. بل إن المحاولات التي بذلت حديثاً من البعض لإيجاد الروابط

١[١] أنظر في معنى الإطار الثقافي بحثنا " مفاهيم تربوية في الإسلام ", مكتبة الوحدة للنشر والطباعة والتوزيع, الكويت, فهد السالم, ١٩٧٧.

بينهما ـ بين العلم وحقائقه, وإطارنا الثقافي ـ قليلة؛ فضلا عن أنها تواجه تيارات متعددة من التضليل, والضلال الفكري؛ الذي يبتعد في حد ذاته عن العلم, وحقائقه, وموضوعيته ومرتبته العليا حينما يصل إلى المجردات التي تسلمه لها, وتوصله لها حقائقه.

ولقد كانت هناك محاولات تحاول أن توجد للعلم إطاراً من الفلسفات المادية الصرفة, مثل البراجماسية, أو الاشتراكية المادية, بحيث تفسر حقائق العلم, وجزئياته المختلفة في ضوء هذا, أو ذلك من الفلسفات. وفي غياب الإطار الذي يمثل جزءاً ضخماً من مكونات نفوسنا وعقولنا تتمزق حياتنا بين هذا وذاك من اتجاهات الحياة المعاصرة المتنافرة.

ومن العجيب والغريب أن روسيا السوفيتية تحاول أن تفسر للعلم وحقائقه في ظل الإطار الماركسي, وأن تحاول الولايات المتحدة تفسر كثير من حقائق العلم, في ظل إطار الفكر البراجماسي أو غيره من النظريات, ونخفق نحن في أن نجد تلك اللحمة, وأواصر القرابة القوية, بل الارتباط العضوي بين العلم والإطار الفكري الخاص بنا.

والسؤال الآن هو: كيف نرد مكونات ثقافتنا إلى إطارها الحقيقي دون خوف من أن نتهم بالرجعية, والسلفية؟ فإطارنا تقدمي متسامق يوائم العلم وحقائقه ويسمو به ويتسامق معه إلى درجات أعلى من العلم إلى الكليات والمجردات والعموميات.

والمعروف أن الثقافة هي ذلك الكل المتشابك من فكر, ومن نظم, وإرادة وعادات وتقاليد وقوانين, ولغة, وأساليب حياة, ووسائل مادية, وطريقة, استخدامها. وهي ذلك النسيج المترابط الذي يتجسد المجتمع كله بنظمه السياسية, والاقتصادية والتربوية, والدينية والترويحية, وما إلى ذلك من النظم. فإذا أردنا أن نكون الإطار العام لهذه الثقافة فإن ذلك يتطلب منا مناقشة هذه النظم, وردها إلى إطارها الخاص الذي ننشده. وفي رأينا أن هذه هي الوسيلة؛ بل المفتاح الذي يفتح أمامنا الطريق لتغيير صورة المجتمع إلى صورة ننشدها (صورة المجتمع الإسلامي) بكل معنى وتطبيق.

والسؤال الثاني هو: ما دور التربية في رد هذه المكونات الثقافية إلى مسارها, ووضعها الحقيقيين في ظل إطارنا الفكري الحقيقي وهو إطار إسلامي؟ وكيف لها أن تؤديه؟ وكيف تتخلص من السلبيات التي حلقت بها, وعوقت مسيرتها نحو هذا الإطار الثقافي الإسلامي؟

والسؤال الثالث هو: كيف تستبطن التربية مفاهيم هذا الفكر الإسلامي؟ وكيف تعكسها في مفاهيم تصاغ في إطارها الأهداف التربوية, والمناهج والوسائل التربوية, وتعمل على تشكيل التربية بكل عناصرها؟

إن الميدان الذي نحن بصدد الكتابة فيه قد حاولنا معالجة جانب منه في بحث آخر بعنوان (مفاهيم تربوية في الإسلام)[3]١.

وهو ميدان تتميز مفاهيمه بأنها بسيطة مركبة, سهلة ممتنعة, ظاهرة باطنة, دنيوية أخروية, إنسانية إلهية, فردية اجتماعية, مادية روحية, جزئية كلية, عقلية جسمية, واقعية مجردة.

وهذه الخصائص متناقضات ليست فيها, وإنما بعضها صفات تنبثق من خاصية التكامل في المفاهيم الإسلامية, وبعضها الآخر جاء نتيجة عمقها الذي لا يستوعبه إلا عمق المفكرين, وبساطتها التي تخاطب أبسط الآدميين ثقافة, وتحضراً.

ولذلك فإن دراستها من متخصصين تحتاج إلى تحليلها بدقة متناهية لسبر أغوارها. ويفيد المنهج التحليلي في هذا المدخل, كما أن المنهج العلمي لا غنى عنه في دراسة قضاياها ذوات الطابع الاجتماعي, والطابع الحسي بعامة.

المنهج التحليلي يبدأ من المفاهيم العامة والمسلمات التي يؤمن بها هذا الدين ليحلل في ضوئها قضايا جزئية, أما المنهج العلمي فإنه يبدأ من دراسة الجزئيات للوصول إلى الكليات, والمفاهيم العامة, والمنهجان بهذا الشكل, وإن كانا يسيران في خطين متقابلين إلا أنهما يصلان في النهاية إلى نهاية واحدة... وإلى غاية نهائية... هي الله.

وهذا الميدان الذي نرتاده دونه صعوبات, ومحاذير كثيرة. ليس أقلها أتساعه وعمقه, اللذين يحتاجان إلى كثير من المؤلفات وكثير من الجهد, وعديد من السنين, لما يثيره من قضايا فكرية,

وتطبيقية. وما نحاوله فيه هنا ما هو إلا فتح باب الاجتهاد فيه في ظل تصور جديد للفكر التربوي في الإسلام, مستمد من الفكر الإسلامي الذي حاول ارتياده المفكرون الإسلاميون على مدار التاريخ الإسلامي, والذي حاول بلورته المفكرون الإسلاميون في العصر الحديث. ولما كانت التربية في الجانب الآخر, بل إنها الجانب العملي لاختبار الفكر في الواقع, فإن التربية الإسلامية ما هي إلا استبطان للفكر الإسلامي. والفكر الإسلامي (محيط) ضخم من المفاهيم, والقواعد العامة, والنظريات الشاملة, ومن ثم فإن المفاهيم التربوية في الإسلام يعجز عن معالجتها مثل هذا البحث الذي نحن بصدده. بل لابد من العديد من البحوث فيه. وعلى ذلك فإن دراسة بعض هذه المفاهيم, أو بمعنى أدق الإشارة لبعض هذه المفاهيم التربوية في الإسلام هي الهدف الأساسي لهذا البحث.

ومراده الحقيقي هو أن يثير المفكرون التربويين لدارسة موضوعاته العديدة منطلقين من هذا المنطلق الإسلامي حتى يتحقق للأمة الإسلامية (تربية) ذات فلسفة تتميز بالأصالة والمعاصرة في نفس الوقت؛ بها ننقي الفكر التربوي, ونصفيه مما علق به من أفكار متسللة إلى مفاهيمنا, وإلى حياتنا, وإلى تربية أجيالنا. وبها نحمى الأمة الإسلامية من الضياع وفكرها من التمزق, وثقافتها من الصراع الذي تعانيه في الواقع, وبها نربى المجتمع المسلم, ونعيد صياغة حياته في جميع مظاهرها, ونظمها في جميع المجالات السياسية, والاقتصادية, والاجتماعية, بوجه عام.

مجالات الدراسة في التربية الإسلامية:

يجب أن نفرق في الدراسات التربوية الإسلامية بين ثلاثة مجالات للدارسة, والبحث:

أول هذه المجالات التربية الإسلامية, ونقصد بها تلك الدراسات التي تجتهد في إبراز المفاهيم التربوية من المصدرين الأساسيين للإسلام: وهما القرآن, والسنة.

وهذه الدراسة تحتاج ممن يرتادونها إلى دراسات أخرى متعمقة لتساعدهم على إبراز هذه المفاهيم. ومن تلك الدراسات دراسات خاصة بالقرآن الكريم بجميع مشتملاته: تفسيراً, وبياناً, وبلاغة, ونحواً, وتاريخاً, وتشريعاً.ومنها أيضاً تلك الدراسات الخاصة بالتربية ومفاهيمها العامة

لكي تساعدهم على وضوح الرؤى بالنسبة لهذه المفاهيم وتساعدهم على إبرازها, وتساعدهم على تربية (المجتمع المسلم). وهي مفاهيم عامة مطلقة لا تتغير بتغير الزمان, ولا المكان.

وثاني هذه المجالات التربية عند المفكرين الإسلاميين, أو عند بعضهم, أو أحدهم. ودراسة مثل هذه الأفكار التربوية عند هؤلاء المفكرين يقصد منها إبراز أدوارهم, وإيضاح إسهاماتهم واجتهادهم في إبراز مفاهيم تربوية إسلامية بالقدر الذي تفاعل به هؤلاء المفكرين في نطاق تفاعلات العصر الذي وجدوا فيه.

وهؤلاء المفكرون التربويون الإسلاميون نماذج متعددة. وأحد هذه النماذج مفكر إسلامي اجتهد في وضع تصورات, ومفاهيم في التربية الإسلامية في حدود فهمه, واجتهاده, في فهم الأصول الإسلامية لهذه التربية. أو مفكر متأثر بالتراث السابق له ـ في عصره أو في عصور سبقت ـ في مجال الدراسات الإسلامية, وإما أن يكون متأثراً بالتراث السابق له في مجال هذه الدراسات الإسلامية, وغيرها من دراسات المفكرين السابقين له من غير المسلمين. وفي كل هذه الحالات, أو بعضها تلعب البيئة, والأوضاع الاجتماعية, والاقتصادية, والسياسية, والتاريخية, والاجتهادات الشخصية دوراً هاماً في تشكيل مفاهيمه.

ولذلك فإن هذه المفاهيم التربوية عند هؤلاء المفكرين تكون نسبية قد تصلح لمجتمع دون آخر, ولعصر دون غيره؛ لما فيها من ملاءمة للزمان وللمكان أو عدم ملاءمة.

وثالث هذه المجالات (تربية المسلمين): وهي تلك التربية التي تمت في الواقع, فهى مفاهيم استبطنتها التربية وتمثلتها بالفعل في مناهج تعليم وطرق تدريس ومؤسسات قد أنشئت بالفعل.

وهي دراسة أقرب إلى التأريخ التربوي منها إلى الدراسة التربوية المتخصصة في الفكر التربوي. ففيها تذكر المؤسسات التربوية, وأهداف التربية, وأساليبها في وقت ما من التاريخ, ومدى اهتمام الحكام والشعب بالتعليم. ونظرتهم له, والوضع الاجتماعي لخريجي المؤسسات التربوية وما إلى ذلك.

ويحتاج كل من المجالين الأخيرين. إلى جانب (الفهم الإسلامي), والتعمق في كثير من التخصصات التي تعين على فهم المفاهيم التربوية الإسلامية ـ إلى دراسات تاريخية متعمقة, وإلى قدرة على تحليل العلاقات المختلفة بين التربية التي طبقت بالفعل والواقع بأوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ودراستنا التي بين أيدينا سنجتهد ـ بإذن الله تعالى ـ أن تكون من النوع الأول. وهو أصعب هذه المجالات الثلاث, وأدقها, وأعمقها. كما أن الخطأ فيه خطير, والمزالق فيه كثيرة, وقانا الله شر هذه المزالق, وتلك الأخطاء.

منهج البحث في التربية الإسلامية

مداخل منهج البحث في التربية الإسلامية

المدخل العقلي: لقد أولى الإسلام العقل البشري وما يصدر عنه من تفكير صادق أعظم مكانة. وفي هذا يقول الله سبحانه: **(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها)**.

والقران الكريم هنا يشار إليه على أنه ملئ بالآيات والعبر والصور الفنية والاستنتاجات العقلية. أي أنه ملئ بنتائج يمكن أن يدركها العقل باستخدامه للمنهج العقلي الاستنتاجي التحليلي.

المدخل العلمي: كما أن القرآن الكريم ملئ بنتائج التجارب الحسية الملموسة التي يمكن أن يصل إليها الإنسان إذا أعمل المنهج العقلي السابق والمنهج الحسي بكل أدواته ومراحله من مشاهدة وتجربة واستخدام للحواس وللآلات, واستخدام للعقل في الاستنتاج والاستدلال والبرهنة.

المدخل الروحي: كما أن القرآن الكريم ملئ بإشارات عن عالم آخر زاخر بمعرفة أخرى تصل إلى الناس عن طريق الرسل الموحى إليهم من الله. وفي استطاعة البشر أن يصلوا إليهم بمنهج آخر هو المنهج الذي أوضحه وحدده لنا من استخدموه من (الصوفية) وهو يستخدم الحدس والإلهام أو ما يشابههما في الوصول إلى مدركات ومفاهيم ومعان لا يصل إليها إلا أهلها.

ونقول أهلها لأن لكل مستوى من هذا المستويات أهلها, والعلم الطبيعي له آهله من العلماء والمفكرين الذين يحرصون على استخدام (المنهج العلمى) أو ما يسمى

بالمنهج التجربي, وما يشتق منه من مناهج أخرى. وأن المنهج العقلي الاستدلالى له رواده من المفكرين والعلماء والفلاسفة وما يشتق منه من مناهج أخرى. وأن (المنهج الروحاني) أو ما يسمى بالمنهج الصوفي له رواده من المفكرين وأهل الحكمة والمعرفة والتجربة الصوفية التعبدية المشتقة من تعاليم الديانات السماوية وعباداتها, وأخلاقها.

ونؤيد هنا عدة معان نحرص على أن تكون واضحة في هذا المقام وهي:

(١) إن هذه المستويات الثلاثة, وإن كانت تبدو من هذا التحليل مستقلة بعضها عن بعض, فإنها يمكن أن تكون متسلسلة مترابطة؛ بحيث يكون المستوى التجريبي هو المستوى الأول للوصول إلى حقائق علمية وقوانين مختبرة, والمستوى الثاني هو المستوى الذي يتشكل به وفيه النظريات والآراء والاتجاهات الفكرية والفلسفية, والمستوى الثالث هو الذي يوصلنا إلى معرفة (ربانية) روحية.

(٢) إن هذه المستويات الثلاثة بهذا التسلسل والتكامل المشار إليه هي حلقات مترابطة غير منقطعة في الفكر الإسلامي. ومن هنا جاء غنى هذا الفكر وشموله.

(٣) إن الحقيقتين السابقتين تؤكدان أن هذه الحلقات وهذه المستويات من المناهج, ومن المعرفة متنافرة؛ وإنما هي بالتأكيد متداخلة, ومتكاملة.

(٤) إن هذه المستويات الثلاثة بقدر ما تؤكد غنى وثراء الفكر الإسلامي ومناهجه تؤكد غنى وثراء التربية الإسلامية لأنها بهذا الشكل تؤكد على:

(أ) تربية علمية للإنسان باتباعه مناهج البحث, والتفكير العلمي.

(ب) تربية عقلية للإنسان باتباعه مناهج الاستدلال العقلي والتحليل الفلسفي.

(ج) تربية روحية للإنسان باتباعه مناهج, وتجارب التجرد الروحي وتصديق ما يصل إلينا من الرسل.

والتربية العلمية, ومناهجها قيل فيها الكثير, كما قيل الكثير أيضاً في مناهج التربية العقلية, والتربية الروحية. وما على طالبي المعرفة بها جميعاً إلا أن يرتادوا مناهلها العذبة.

وتبدأ التربية الروحية بالإيمان بالله وبرسله وكتبهم بتجارب التعود على التجرد من خلال العبادات في الصلاة, وفي الصوم, وفي الحج, ثم تتدرج إلى تجارب التجرد في العبادات في شهر رمضان أو أشهر أخرى من العام.

ويستمر الإنسان في تجربة التجرد الروحي في كل (عمل) يقوم به أو يؤديه حينما يستشعر باستمرار (الخوف) من الله, ويحس باستمرار (بالرقابة) الإلهية الكل تصرفاته (وأفعاله).

وهنا يتحدد موقع (التربية الدينية) والتنشئة الإسلامية. كما يتحدد مفهومها ومغزاها فهي ليست مجرد آيات قرآنية وأحاديث نبوية تحفظ, وليست مجرد طقوس وعبادات تعلم, وإنما هي (تربية وجدانية) يتشكل بها (الضمير الخلقي) وفقا (لمعايير الإسلام وأحكامه) حتى تكون بمثابة الضابط الأساسي الذاتي لكل فعل يصدر عن الإنسان في حياته وهو يتعامل مع غيره, أو حينما يسند إليه (عمل) من (أعمال) المجتمع المختلفة.

كما إنها تربية عقلية وتتكون بها مهارات التفكير ومواجهة قضايا الحياة بمنطق صحيح بعيد عن المغالطة والالتواء, ويتشكل بها إجابات منطقية عن كثير من هذه القضايا.

وهي تربية حركية جسمية بها يستقيم جسم الإنسان, وتنمو حركاته, وتتشكل مهاراته الحركية, وتنمو بها وظائف الأعضاء في إطار المعايير الإسلامية والفهم الإسلامي لقضايا الحياة.

وهي تربية علمية تشكل اتجاهات الناشئين والشباب نحو الحياة واستثمارها من أجل خير البشرية. فلقد جعل الله خلقه من البشر, خلفاً له ليعمروا هذه الأرض وأعطاهم كل إمكانات وأدوات (التعمير), ومكنهم من كل صفات الاستخلاف.

وهي تربية روحية تسمو بالإنسان فوق (الماديات) فيخلع النعلين... نفسه وجسده... ومعنى ذلك إيثار يحل محل الأثرة, وفضيلة تحل محل الرذيلة... ومعايشة مع الله, وهجرة إليه, ويأخذ الإنسان هجرته إلى الله في ارتقاء مستويات المعرفة الثلاث: العلم المادي, ثم المعرفة العقلية, ثم المعرفة الروحية. ووسيلة الأولى المنهج العلمي وأدواته الحواس, والتجارب العلمية, ووسيلته الثانية المنهج الاستدلالي والتحليلي وأدواته العقل, ووسيلته الثالثة المنهج الحدسي, وأدواته القلب والبصيرة والوجدان الصوفي.

نظرة الإسلام إلى الطبيعة البشرية في إطار هذه المداخل (وجهة نظر):

إن بناء المفاهيم التربوية الإسلامية على أساس مفهوم متكامل للطبيعة البشرية يأخذ في اعتباره تنمية الجانب الروحي للإنسان إلى جانب تنمية جميع الجوانب الأخرى العقلية, والجسمية, والاجتماعية, والنفسية.

فإذا ما نظرنا للإنسان نظرة متكاملة على أنه مكون من شخصية متكاملة ذات جوانب جسمية وعقلية ونفسية وروحية واجتماعية فإن ذلك يتطلب تنمية هذه الجوانب كلها.

وفي هذه النظرة معالجة لكل النظريات الضيقة للطبيعة البشرية وتجنب قصورها. فالنظرة إلى الإنسان على أنه كائن حي بيولوجي مثل بقية الكائنات الحية الأخرى, وأنه مجموعة من الأجهزة العضوية تؤدي وظائف لهذا الكائن الحي, وأنه لا يختلف عن بقية الكائنات الحية الأخرى إلا في الدرجة قول يجافي الحقيقة. إذ أن الإنسان أكبر من هذا بكثير وأغنى في إمكاناته وطبائعه الأخرى, فله طبيعة اجتماعية تجعله يعيش في مجتمع منظم بنظم, وقواعد, وتقاليد, وعادات, وعرف, وقانون في إطار نظم اجتماعية عديدة.

وله طبيعة عاقلة ذكية مفكرة تجعله يفكر ويتذكر ويتخيل ويتصور ويدرك ويبدع ويحل مشكلاته العقلية ويعمل تنبؤات في المستقبل.

وله طبيعة نفسية, بها يحب ويكره, وينفعل ويسر, ويعبر عن كرهه وحبه وسروره. وتتعاون هذه الطبيعة مع الطبيعة الاجتماعية العاقلة الجسمية في بناء عمليات التعاون والصراع, والحب والكره, والانتماء الاجتماعي. وبناء الأسرة.

وله طبيعة روحية بها يدرك معاني أسمى من الحياة الحسية التي يحياها, ويصدق بما أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه ورسله, ويسلم بهذه المعرفة الإلهية, وينطلق منها بانياً تصوراته, ومفاهيمه وسلوكه على أساسها.

والناس ينقسمون, ويتدرجون في مراتب وفقاً لتغليبهم جانباً من هذه الجوانب على غيرها.

فالإنسان الذي يغلب الجانب الحيوي على بقية الجوانب الأخرى إنما يقترب بذلك من الحيوانات. فهو إنسان تغلب شهواته ومطالب جسمه المختلفة على بقية الجوانب الأخرى في شخصيته.

والإنسان الذي يغلب الجانب العقلي على بقية الجوانب الأخرى, ثم يهمل الجوانب الأخرى يصبح إنساناً عالماً ومبرزاً في جانب من جوانب العلم الدنيوي وهو بذلك لا تشغله أمور الدنيا ولا أمور الآخرة إنما يشغله ويستحوذ على حياته وانتباهه ذلك الجانب الذي يفكر فيه.

والإنسان الذي يغلب الجانب النفسي فيه يكون إنساناً انفعالياً أو عاطفياً تسيطر عاطفته عليه وعلى بقية مكوناته, فقد يزهد في مطالب الجوانب الأخرى.

والإنسان الذي يغلب الجانب الاجتماعي فيه يعيش للآخرين وينسى في سبيلهم نفسه ومطالبه الفردية.

والإنسان الذي يغلب الجانب الروحي يزهد في الدنيا كلها ويهمل مطالب جميع بقية مكونات شخصيته, فيكون صوفياً راهباً, يطلق الحياة كلها ويندمج اندماجاً كاملا في عالم الروح.

والإنسان المتكامل في شخصيته هو الذي ينمي جميع جوانب شخصيته بشكل منسجم متناسق متكامل إلى أقصى درجة ممكنة من النمو, والتربية المتكاملة هي التي تدرك مطالب هذه الجوانب المختلفة كلها وتدرك وسيلة تنميتها إلى أقصى درجة ممكنة من النمو, وتدرك حسابات ونسب النمو المتكامل بين هذه الجوانب المختلفة حتى تشرف إشرافاً دقيقاً على توجيه هذه النسب في إطار من هذا التناسق والتكامل.

فالإسلام لا يستهدف من تربية الإنسان أن يكون حيواناً يسعى إلى البقاء والاستمرار كما تسعى الحيوانات الأخرى بالغريزة, وتصارع في سبيل ذلك بكل ما أوتيت من إمكانيات. ولكنه يريد إنساناً يسعى إلى البقاء موظفاً جميع إمكانات شخصيته في حياة إنسانية بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى التعاون والإيثار, والتضحية, والحب, والتفكير الإنساني الخلاق, وبإمكانات الإنسان الاجتماعية, وبإمكانات وظائف أعضائه المختلفة.

والإسلام لا يستهدف من تربية الإنسان أن يكون (راهب علم) أو (راهب دين) فالحياة لا تستمر ولا تثرى إلا بمعايشتها ومعايشة مشكلاتها وقضاياها, والإنسان لا يتم اختباره واختبار فكره ونفسه ونوازعه اختياراً حقيقياً إلا من خلال قضاياها ومشكلاتها الحياتية اليومية.

والإسلام لا يستهدف من تربية الإنسان أن يكون ظالما لنفسه يهب نفسه للآخرين, مهملا لنفسه, وإنما يريده واهباً نفسه لنفسه وللآخرين.

والإسلام لا يستهدف من تربية الإنسان أن يكون منعزلا عن المجتمع, أنانياً مضحياً بمصلحة المجموع في سبيل مصلحته, وإنما يريده إنساناً محباً للآخرين حبه لنفسه.

إن الإنسان الذي تتأمل فيه الجميع جوانب النمو هو ما تستهدفه التربية الإسلامية.

والتكامل هنا تكامل بين الجوانب المادية والروحية في الإنسان, أي تكامل في الجانب الجسمي, والجانب العقلي, والجانب النفسي, والجانب الاجتماعي, والجانب الروحي. وهو تكامل جامع مانع.

الفصل الأول

سلبيات ثقافتنا

سوف نحاول أن تجيب باختصار شديد عن الأسئلة الثلاثة التي سبق طرحها في بداية البحث آملين أن تثير الأبحاث حول دراستها دراسة أعمق, وأشمل وكل سؤال من هذه الأسئلة مستقر وله فصل خاص لمناقشته.

السؤال الأول: كيف نرد مكونات ثقافتنا إلى إطارها الحقيقي؟

إن هذا السؤال يحتاج في الإجابة عنه إلى تحليل عدة نقاط أهمها:

١ـ ما هي السلبيات التي دخلت ثقافتنا, وندرك أنها في حاجة إلى أن تتحرر منها؟

٢ـ ما هي الأسباب الرئيسية في إدخال هذه السلبيات إلى ثقافتنا؟

٣ـ ما هي السبل التي تستخدمها الثقافات الأخرى لإضعاف ثقافتنا ولإجبارها على الإبقاء على هذه السلبيات, والتمادي في الترقيع من الثقافات الأخرى؟

٤ـ لماذا تحول الاقتباس الثقافي إلى صراع ثقافي, ولماذا تسبب في وجود هوات ثقافية؟

٥ـ لماذا عجزت ثقافتنا القوية الأصيلة عن مواجهة الهجمات والغزوات الثقافية المتلاحقة لها؟

إن السلبيات في ثقافتنا عديدة تجل عن الحصر. ودراستها تحتاج إلى بحوث عديدة وسوف نكتفي بالإشارة إلى بعضها على سبيل الأمثلة لا الحصر.

السلبية الأولى ـ عدم وضوح الرؤيا الإسلامية:

لعل أول سلبية, بل أخطرها على ثقافتنا هي أن الصلة بين حبات العقد الثقافي مفقودة عند الغالبية في مجتمعنا العربي, بل الإسلامي, والأخطر من هذا أن فقدان هذه الصلة قد منى بها كثر من مفكري, وكتاب هذه الثقافة وبعض المدركين منهم لحبات العقد قد لا يبذلون

المحاولات العلمية الجردة للربط بينها في نظام متكامل متناسق من الفكر المرتبط بجسم المجتمع.

والأكثر خطورة من هذا, وذاك أن تجد مناهضين لهذه الثقافة يتولون, وينبرون لمحاولات إضعافها, وتضييع كثير من حياتها, وإخفاء معالم الربط بينها.

بل أدهى من ذلك, وأمر أن سيطر على كثير من المفكرين موجة اتهام للمفكرين الذين يبحثون في أصالة ثقافتنا بالجمود, والرجعية, والنكوص إلى الوراء.

وتحت مظلة من هذه السهام الموجهة إليها, والحراب النافذة في صدورها تدخل المؤثرات الثقافية الغازية لتجديدها منهكة القوى, جريحة بأيدي أبنائها, وأعدائها على حد سواء, فلا تلبث أن تأخذ جرعات من (مخدرات) هذه الثقافات المعادية فيتخدر جسمها فاقداً الوعي, والإحساس فلا يلبث المشايعون للثقافات الغازية أن يراهقوا في اقتباس عناصرها, فيحلون محل قيمنا قيمها, ومحل عاداتنا عاداتها, وتقاليدنا تقاليدها, وفكرنا فكرها. وقد تتقبل بعض عناصر بنية ثقافتنا هذا الإحلال وهي في وطأة التخدير. فإذا ما أفاقت لحين وجدت نفسها, وقد دخلها(جسم غريب), فيبدأ الصراع, وتحمى المعركة الثقافية. والمحصلة هي ضياع وقت الأمة, وجهدها, فلا تعكف على التفكير الهادئ. ويضيع عليها فرصة الزمن المتاح, والإمكانات الوفيرة فيسبقها السابقون في مضمار المعركة الثقافية, والحضارية الدائرة بينها وبينهم؛ على الأقل في دائرة الوهم لا في نطاق الحقيقة.

إن أخطر ما تصاب به أمة من الأمم أن تفقد وعيها: فلا تحدد إطار فكرها العام. لأن تحديد هذا الإطار معناه تحديد لمجموعة من القيم المرتبطة بمجالات الحياة المختلفة, وبنيانها, وعناصرها. وتحديد القيم معناه تحديد للإطار المرجعي أو لمجموعة المعايير, والموازين التي توزن بها القوانين, والتشريعات, والقرارات واللوائح المقننة, والمحددة, والموصفة لكل عمل, ولكل سلوك يحدث في مجال كل عمل من هذه الأعمال, وهي تلك الأعمال التي تتضمنها جميع النظم الاجتماعية التي تكون النظام الاجتماعي العام للمجتمع.

ومعنى ذلك أن العقد الفكري المنفرط تضيع في نطاقه روابط الأعمال, والإدرار المختلفة في المجتمع. وهذا في حد ذاته هو الذي فتح الباب على مصراعيه لكل وافد ثقافي. ولكل غاز ثقافي, فترقع ثوبنا الثقافي, وعندما يحاول المصلحون رتقه يزداد تمزقاً في أيديهم.

إذن يصبح ـ والحال هكذا ـ خلع هذا الثوب المرقع أمراً حتمياً. كما يصبح نسج نسيج ثقافي متين, وأصيل أمراً أكثر حتمية, لأن المجتمعات لا تستطيع العيش لحظة ما بدون ثقافة, وبدون فكر أصيل متماسك الأفكار في نظام متناسق.

ويصبح الأمر الذي يحتاج إلى مواجهة هو التوفيق في الوصول إلى صيغة لمعادلة صعبة تحتمها الظروف والتحديات المعاصرة, وتضعها في مواجهة الثقافة الإسلامية. فإما أن يثبت أن ثقافتنا الإسلامية قادرة على المعاصرة وقيادة المجتمع الإسلامي إلى درجات من الرقى لا تصل إليها الثقافات الأخرى بأية وسائل, وأما أن تخلى سبيلها لهذه الثقافات الوافدة الغازية تعمل ما تشاء أن تفعله بنا.

والاختيار الثاني اختيار مرفوض, وغير مقبول لسبب بسيط أن بلاده نفسها قد ضاعت في نطاقه, وزاغ بصرها, وتمزقت روحها. وهي تبحث عن بديل ينقذها من التردي, والتدني الذي نتهاوى إليه.

وقد كان من الممكن أن ينقذها فكرنا الإسلامي, وثقافتنا الإسلامية لو أننا قد استوعبنا في هذا العصر, وقدمنا نماذج حية معاصرة لمجتمعنا مثالية تقود العالم المعاصر, وتأخذ بيد الثقافة الغربية المترنحة.

أما الاختيار الأول فهو المنقذ لنا, والبشرية جمعاء من هذا التردي والتدني الفكري, والثقافي الإنسانيين.

لقد كان في كل فترة من فترات التاريخ البشري تتردى فيها البشرية, وتتوه في غياهب الظلمات تتنزل عليها رسالة من السماء داعية أباها إلى الطريق المستقيم.

أما وقد نزلت آخر الرسالات, فليس للبشرية أن تنتظر هطول الخير من السماء مرة أخرى, وبيدها أكمل الرسالات وأتمها. وما على العارفين بدررها وبمفاتيحها إلا أن يستمسكوا بها, وأن يقدموها في نماذج مجسدة للبشرية جمعاء ولذلك فإن صياغة حياتنا الاجتماعية وفقاً لهذه الرسالة الإسلامية معناه إنقاذ لنا, وللبشرية جمعاء.

وليس من مدخل لهذه الصياغة إلا بناء الإنسان المسلم, وبناء المجتمع المسلم وفقاً لمفاهيم التربية, ومناهجها, وأساليبها, ووسائلها, في الإسلام.

السلبية الثانية:

ـ أما السلبية الثانية فقد كانت نتيجة طبيعية للسلبية الأولى, لأن السلبية الأولى ما هي إلا فقدان الرؤيا الواضحة المستنيرة التي تتحدد في نطاقها جميع الطرق والمسالك والوسائل. فباختفاء الغايات, وعدم وضوحها, بل عدم السعي لها تختفي الوسائل, ويتبدد الجهد, وبالفعل فإن وسائلنا وطرقنا التي نسلكها في حياتنا بجميع أبعادها هي وسائل غير جادة, وطرقاً غير موصلة.

فتخطيطنا لحياتنا في جميع النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية, وأمنية وترفيهية, وأسرية يفقد وحدة الفكرة, وتماسكها وبالتالي تتجزأ خططنا, وتتمزق.

وتنفيذنا لخططنا وما يتطلبه ذلك من عمل, ومن أخلاقيات لهذا العمل, ومن تنظيم للعمل, وإدارته ومن قوانين وأخلاقيات تتعاون مع القانون ضبط سير العمل نحو الغايات, كل ذلك يصعب تواجده أو تماسكه في ظل الغايات غير الواضحة وفي ظل غياب وحدة الفكر وتماسكها. ويترتب على ذلك تشتيت لخططنا, وضياع للأخلاقيات المرتبطة بالأعمال المختلفة, وبالأدوار المختلفة, وبالتالي يضعف مستوى الإدارة والتنظيم, كما يضعف مستوى تعاملنا مع وسائلنا المادية, والحفاظ عليها, وصيانتها, كما يضعف مستوى تنفيذها للقانون, وتنمية للقيم فينا, والحصيلة النهائية انخفاض مستوانا الحضاري والفكري عن غيرنا.

وكثيراً ما نلجأ إلى حلول لمشكلاتنا بعد ما تلح علينا هذه المشكلات وتطرق أبوابنا. ولما كانت المشكلات تنشأ من عدم تحديد خطوط مساراتنا نحو غاياتنا, ولما كنا نفتقد وضوحاً في غاياتنا, وتحديداً لها, فإن خطوط مساراتنا تصبح غير مستقيمة, أو واضحة هي الأخرى, فتنشأ المشكلات المختلفة.

ونحن في حلنا لهذه المشكلات قد نلجأ إلى حلول مطابقة لحلول عند غيرنا لمشكلات نبعت عندهم هم. وقد نضحي بالوعي أو باللاوعى ـ بكثير مما نحرص عليه من قيم في سبيل الحل المؤقت لمشكلاتنا. فيكون مسلكنا ـ في أمور من أمورنا ـ غير إسلامي. وحينما تتراكم حلول مشكلاتنا على هذا النحو أو تتراص إلى جوار بعضها نجد أنفسنا نعيش في نطاق غير إسلامي تماماً. ولا يبقى لنا من هذا (الدين القيم) إلا العبادات وبعض الطقوس الدينية إن فقدت روحها الإسلامي الموجه للحياة.

ولعل ذلك هو السبب في اقتباسنا لحلول اقتصادية غير إسلامية, ولقوانين, ولوائح غير إسلامية. بل تمادى بعض الأشخاص في بعض المجتمعات الإسلامية في سن بعض اللوائح غير الإسلامية ولم ينتفض لها الروح الإسلامي في هذه المجتمعات, مع أنها تتناقض صراحة مع الإسلام.

ويتوج هذا الانحراف في الاقتباس بانحراف في الاقتباسات التربوية لعناصر التربية, ومحتواها الفكري والقيمي. ومنطلقاتها, باستثناء بعض (التغليفات) اللفظية بضرورة أن تشتق المناهج والأهداف من ثقافة المجتمع دون محاولات جادة واعية محللة لمحتوى القيم الإسلامية ـ إطار ثقافتنا الحقيقي ـ, وتضمينها الأهداف, والمناهج, والوسائل التربوية.

السلبية الثالثة ـ ضعف المستوى اللغوي لدى المسلمين:

أما السلبية الثالثة فهي تبدو في القصور اللغوي عند كثير من المتصدين لقضايا الفكر, والحياة. واستخدامهم للغة العامية بدلا من اللغة العربية الفصيحة الأصيلة... لغة القرآن

الكريم الذي استوعب كل صغيرة وكبيرة في الحياة. وما بعد الحياة **(إنا أنزلناه قرآناً عربياً)**

وأدى قصور هؤلاء القوم إلى إظهار اللغة, وكأن بها قصوراً في حد ذاتها. مما دعا البعض من الجاهلين بأعماقها واتساعها, وعرضها وجوهرها. وسلاستها أن يتجرءوا عليها, ويدعون إلى إحلال لغات أخرى محلها أو إحلال الحروف اللاتينية محل حروفها.

وفي هذا المجال تجرى محاولات لتدعيم اللهجات, ومساعدتها على هزيمة اللغة العربية الفصحى. وهيهات لهذه المحاولات أن تنجح, فهي إمام الفصحى أو هي من خيوط العنكبوت.

كما تجرى محاولات الشعر بالعامية, وكتابة الشعر دون قوانينه الأصيلة. وهي محاولات محكوم عليها بالفشل. لأنها لم تخلق شاعراً ذا عبقرية, وإنما خلقت أقزاماً من الناس يرتادون المقاهي, ولا يجدون لهم قراء ذواقين أو يجدون لهم من يتقبلهم من عمالقة الفكر والأدب.

ويبدو هذا القصور واضحاً في ضعف المستوى اللغوي في مراحل التعليم المختلفة, وبخاصة في المرحلة الابتدائية, وهي أساس للبناء اللغوي لدى الأجيال الملتحقين بها. ويعزى ذلك بالدرجة الأولى إلى انخفاض المستوى اللغوي لدى معلمي هذه المرحلة بعد أن قل نصيب القرآن وعلومه في مناهج إعدادهم. فبعد أن كانوا يعدون في إطار إسلامي تماماً في (مدارس المعلمين العامة), (والأزهر) حيث كان القرآن وعلومه هي الأساس في إعداد الطلاب إعداداً فكرياً, وقيمياً, ولغوياً, أصبحوا يعدون من خلال مناهج تعطى لهذه الدراسة قدراً قليلا في أوزان المناهج والوسائل.

وصحيح أن هذه المناهج التي كان يعد من خلالها المدرسون في مدارس المعلمين العامة والأزهر, كانت في حاجة إلى إعادة صياغة بما يتواكب مع متغيرات الحياة إلا أنها بدلا من أن تطور في اتجاه صحيح قضى على مقوماتها الأصيلة.

وهذه الصورة البسيطة التي عرضناها ما هي إلا قليل من كثير يذكر في هذه السلبية. إلا أن النتيجة التي تترتب على سلبية محاولات إضعاف اللغة العربية هي أنها نجحت في خلق أجيال لا تتمكن من اللغة العربية ومن جوهرها وبالتالي فقد تسبب ضعفهم اللغوي هذا في عدم قدرتهم على فهم مفاهيم الإسلام بوعي وبصيرة.

ولعلنا نعيد هنا ثانية التساؤل عن مغزى الآية الكريمة **(إنا أنزلناه قرآنا عربياً)**.

السلبية الرابعة

السلبية الخامسة :ضعف الفهم لبواعث الحياة

السلبية السادسة :الصراع الثقافي

السلبية السابعة :ظاهرة لوم النفس

السلبية الرابعة:

أما السلبية الرابعة فنتيجة طبيعية هي الأخرى لضياع الغايات والوسائل الإسلامية من مجتمعاتنا الإسلامية. وتكمن في فقدان التربية في المجتمعات الإسلامية لغاياتها ووسائلها الإسلامية اللهم إلا من قبيل الترقيع, وعدم الفهم الواضح لجوهر الفكر الإسلامي ولغاياته, ووسائله. ومن قبيل تخصيص بعض دروس في التربية الإسلامية. وكأنها الإسلام قد اقتصر في بنيانه على بعض العبادات وحفظ بعض سور القرآن, وبعض الأحاديث النبوية الشريفة وترديدها دون فهم في غالب الأحيان.

ولم يعد الإسلام موجهاً للفكر التربوي, ولا للممارسات التربوية في كافة عناصر العملية التربوية. ولا للممارسات الإدارية بالذات.

وبذلك فقدت مكونات المناهج ترابطها واتصالها في نطاق إطار الفكر التربوي الإسلامي, ولذلك نرى أن الأجزاء المكونة للمناهج الدراسية لا تتمثل في الفكر الإسلامي ولا تسير في نطاقه في كثير من الأحوال؛ إن لم يكن في كلها.

ولذلك فإننا نجد شروداً في بعض أجزاء من المقررات, وبعداً عن السياق الإسلامي. بل نجد أن بعض المقررات الدراسية قد تتناول تفسيرات تبعد بأبنائنا عن هذا الفكر الإسلامي. وقد تبرز تناقضات مع هذا الفكر. مع أن الفكر الإسلامي لا يتناقض في ظاهره, ولا في باطنه مع حقائق العلوم الطبيعية. وإنما قد ينشأ مثل هذا التناقض من سوء الفهم والتفسير لكلا المجالين: العلمي والديني.

ومن العجيب أن تحدث محاولات من الشيوعيين, ومن الرأسماليين ومن غيرهم لربط حياتهم, وتربيتهم بعقيدتهم الاجتماعية ـ اشتراكية أو رأسمالية ـ ويحاول فلاسفة أولئك وهؤلاء أن يحددوا فلسفة المجتمع, وأهدافه, وسياسته العامة, وفلسفته وأهدافه, وسياسته التربوية في ضوء هذه العقيدة أو ما تسمى أحياناً بالأيديولوجية.

ولا نحاول أن نربط فلسفتنا, وأهدافنا, وسياستنا العامة, وفلسفتنا, وأهدافنا وسياستنا التربوية بعقيدتنا الاجتماعية الإسلامية.

إن لعقيدتنا نظرة وتفسيراً للكون, وللطبيعة, وللإنسان, والتاريخ وللغايات وللوسائل البشرية في هذه الحياة. وكل ذلك التفسير يكون فكرنا, ويكون فلسفتنا ومواقفنا في الحياة من كل شيء, وتبدو مجموعة الدراسات, والعلوم الطبيعية والإنسانية معالجات لمجموعة من الجزئيات التي يشملها هذا الكون. وبالتالي تدخل في نطاق التفسير الكلي للكون, وللطبيعة, وللإنسان, وللتاريخ الذي يشمله فكرنا, وهو ذلك الفكر الذي تتضمنه بهذه العقيدة الاجتماعية الإسلامية.

وأي مادة من مواد الدراسة, أو مقرر, أو فرع تخصصي يجد موقعه في ظل هذا التفسير, وذلك الإطار, كما يجد مواطن التحامه بباقي التخصصات, ومواطن ارتباطه بالحياة التي يحياها البشر ساعين نحو غرضهم وغايتهم في هذه الحياة.

وسيجد كل فرع تخصيصي محتواه, وقد أثرى بمضامين هذه العقيدة, وأثرى بما تعكسه فيه هذه المضامين من مكونات ثقافية أبدعها البشر وأنتجوها.

وستجد التخصصات نفسها, وقد التحمت مع بعضها في منظومة مرتبطة الحلقات؛ رباطها هو الفكر الإسلامي, ومحتواها هو المحتوى الثقافي الإسلامي.

ستجد أحداث التاريخ ـ مثلا ـ تفسيراً إسلامياً للحوافز والدوافع التي دفعت إليها, وللغايات التي تشرئب لها أعناق البشر. وستجد النماذج البشرية الإسلامية التاريخية تفسيراً في ظل الروح الإسلامي وسيجد التاريخ البشرى كله تفسيراً في ظل النظرة الإسلامية.

وستجد الظواهر الكونية تفسيراً في ظل هذا الإطار الإسلامي أيضاً, كما ستجد الأنشطة البشرية في استثمار الطبيعة, ودراستها, وفهمها من أجل السيطرة عليها تفهماً وتقبلاً, وحفزاً من هذه العقيدة الإسلامية.

وستجد الظواهر النفسية, والعقلية, والروحية, والاجتماعية, تفسيراً عبقرياً في محتوى هذه العقيدة. فهل من باحثين في أعماق هذه العقيدة لإبراز عبقريتها المعجزة في مجال هذه الظواهر؟

هذا السؤال تطرحه هذه العقيدة على أهلها في هذا العصر بالذات, وهو عصر حاولت قوى كثيرة أن تجتهد في إيجاد تخريجات, وتفسيرات لهذه الظواهر مبتعدة عن فكر خالق الكون, والإنسان!!. فهل في هذا منطق.

السلبية الخامسة ـ ضعف الفهم لبواعث الحياة:

لاشك أن من السلبيات التي خيمت على الثقافة في بلادنا تلك الأفكار الخاطئة والتفسيرات الخرافية لبواعث الحياة في الإسلام. ومن هذه الأفكار الخاطئة مثلاً ما خضعت له عقيدة (القضاء والقدر) من فهم خاطئ كما كانت مسئولة عن ذلك الجمود الفكري, والركود الثقافي, والاجتماعي, والتخلف الاقتصادي.

ولقد وجد في القرن التاسع عشر من المفكرين الإسلاميين من أمثال الإمام الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وقبلهما وجد رفاعة رافع الطهطاوي وغيره لإبراز معاني الاستخلاف في الأرض وعمارتها, ومعاني النهوض والاجتهاد البشري في مجال الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

ولقد أهتم الشيخ محمد عبده بإبراز معنى التوكل واختلافه عن معنى التواكل وضرب لذلك أمثله

من القرآن الكريم١[1]. وكان هدفه من ذلك تجديد بواعث الحياة في الفكر الإسلامي بما يعكس

اتجاهات إيجابية في واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ولقد كان لكل ممن ذكرنا أيضاً ومن لم نذكر جهد في هذا السبيل. كما كان لنمو حركة التعليم والتحديث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثر في زوال كثير من هذه المفاهيم الخاطئة من الثقافة الإسلامية.

السلبية السادسة ـ الصراع الثقافي:

إن الصراع الثقافي ظاهرة من ظواهر المجتمع الإسلامي المعاصر, وهو نتيجة للظروف المعاصرة فأسبابه كثيرة, ومظاهره متعددة. فمن أسبابه عدم وضوح قيمنا في فكرنا, وغياب النموذج المجسد لها في حياتنا, وفي نفس الوقت تتدخل المحاولات من جانب أعداء الفكر الإسلامي لتقديم قيم أخرى مجسدة في واقع الحياة المعاصرة لتحل محل القيم الإسلامية. وقد نأخذ بها تحت ضغط الظروف المحيطة بنا. ومع أخذنا بها إلا أننا نحس باستمرار بأنها لا تتوافق مع روحنا وحسنا. كما نحس بأن شيئاً ما ينقصنا باستمرار. ما هو؟. يقول البعض إنها القيم الإسلامية. ونتلهف عليها, ولكن هيهات لنماذجها التجسيدية أن تشق طريقها في أرض الواقع بفعل التراكمات السلبية التي تكونت عبر التاريخ. ولذلك نظل متطلعين للإسلام وتطبيقاته في صعوبة بالغة.

وأما مظاهره فعديدة منها أننا نأخذ بأسلوب من أساليب العصر, وفي أعماقنا رفض له. ومع ذلك نستمر في الأخذ به. ومنها ما يوجد من تيارات فكرية متصارعة, بعضها يأخذ بالاتجاهات المعاصرة, دون ربطها بإطارنا الفكري. وكأننا نبدأ الحياة عن جديد متجاهلة أن الماضي هو مدخل الحاضر, وأن الحاضر هو مدخل المستقبل. وهو المشكل له, وبعضها الآخر يأخذ بالاتجاهات السلفية دون محاولة لتكييفها مع العصر ظناً منه أن الماضي مقدس, وأنه خلق ليبقى ولا يتغير. وهو بذلك يسير عكس التيار, وبعضها الثالث يحاول التوفيق بين الاتجاهين. وقد يخطئه التوفيق. ورابع التيارات يحاول التوفيق, ولكنه لا يجد الاستجابة الكاملة من غالبية الناس, ومن بيدهم مقاليد الأمور.

السلبية السابعة ـ ظاهرة لوم النفس:

وهي ظاهرة حادة في ثقافتنا. حينما نقسوا على أنفسنا قسوة شديدة في محاسبتها صحيح أنه من المرغوب فيه حساب النفس قبل أن تحاسب **(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)**. لكنه صحيح أيضاً أن **(كل ابن آدم خطاء, وخير الخطائين التوابون)**٢[2]. إننا في غمرة محاسبة النفس. وهي قيمة كبرى في المسلك الإسلامي, تظهر أمامنا السلبيات والأخطاء, ونتجاهل الإيجابيات والصوابات. ومع أن النفس المسلمة تكتئب للأخطاء؛ فإن لومنا لها ينسينا هذه الإيجابيات الحافزة للحياة وللسلوك.

والسبب في ذلك ما نشأنا عليه وما كنا نلقنه من أن الدين منجاة من عذاب جهنم. فكانت الآيات المختارة لنا صغاراً تحرصنا في هذه الزاوية, وتبرز لنا مشاهد القيامة المروعة, والمصير الذي ينتظر مرتكبي الذنوب والأخطاء.

وبذلك كان مدخل الدين إلينا هو الترهيب لا الترغيب, وكأنما محمد الرحمة المهداة لم يكن إلا نذيراً فقط, ولم يكن بشيراً للعالمين. ويظل هذا المدخل يحدث أثره في النفوس حتى يكبر الصغار ويشبون على (الخوف الديني) إن صح هذا التعبير. ويظل الحال كذلك حتى ينمو الدين في نفوس المسلمين فيدركون أنه دين الرحمة قبل أن يكون دين عذاب.

وأن الله سبحانه وتعالى وسعت رحمته كل شيء **(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)**٣[3].

أو يظل الحال كذلك حتى ينفر كثير من المسلمين من إسلامهم لأنهم لم يروا منه إلا الوجه العقابي.

وهذه الظاهرة ـ ظاهرة لوم النفس ـ قد طبعت فكرنا المعاصر. فحينما نريد أن نحلل ثقافتنا لا يكون همنا وشاغلنا الأعظم إلا ذكر السلبيات وتحليلها, مغفلين للإيجابيات ودوافعها وعظمتها في حياتنا. وكأنما حياتنا كلها سلبيات!!٤[4].

ولا يكون من هم أمام (الوعاظ وخطباء المساجد) إلا تذكرة المسلمين بالموبقات وعقوباتها والنار ولهيبها وعذاب الآخرة وشدته, إن هذا الجانب لا شك هام في الوعظ الديني **(فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)**[5]. ولكن أن يقتصر الوعظ والكلام الديني باستمرار على هذا الجانب دون سواه فهو ذلك ما ندرك خطورته على الدين.

وتبنى الإسلام كحركة الإصلاح في المجتمع لا يتأتى برصد السلبيات والنهى عنها وتأنيب النفس البشرية عليها, وإنما يتأتى بتنشيط الجانب الإيجابي والفعال في خلق المسلم, ليكون إنساناً متحضراً يلتزم الجدية في القول وفي العمل, ويحترم النظام في التفكير وفي الممارسة, ويعشق التعاون في أوقات الرخاء وفي أوقات الشدة, ويأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين.

ولست أظن كل هذا أو حتى بعضه يمكن تحقيقه ما لم نجتهد لإصلاح الإطار المجتمعي الخارجي الذي يتحرك فيه هذا الإنسان المنتسب إلى الإسلام بطريقة عصرية, لنساعده على الالتفات إلى وتبنى الأوامر التي أوجبها عليه الإسلام, وألزمه أن يكون بمقتضاها عضواً إيجابياً صالحاً في المجتمع المسلم, والتي ألزمه القرآن بها قبل أن يبصره بالنواهي حيث لم يرد في القرآن نهى عن المنكر إلا واقترن به بل سبقه أمر بمعروف.

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر){آل عمران: ١٠٤}

(يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) {آل عمران: ١١٤}.

(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة) {التوبة: ٧١}.

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) {الرعد: ٣٦}.

(ما أتاكم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) {الحشر: ٧}٦[6].

ولذلك فلا يفوتنا أن نذكر في نهاية تتبعنا لبعض السلبيات أن نذكر بعض الإيجابيات في الحياة الإسلامية ظلت تحافظ على نفسها على مر العصور. فمنها الترابط الاجتماعي القوي خاصة في البيئات الريفية والصحراوية, فهذا الترابط وإن كان لهذه البيئات أثر أساسي في تكوينه والإبقاء عليه واستمراره إلا أن محتوى هذا الترابط فيه كثير من القيم الإسلامية. فهو يجسد مثلا قيم الإخاء والتعاطف والتراحم بالمعنى الإسلامي. ويمكن لهذه النماذج الإيجابية أن تنمو وأن تستثمر لتكوين الإطار القيمي الإسلامي من جديد لمجتمع متماسك متعاون لتحقيق الخير الأسمى في كل أبعاده المادية والمعنوية.

ومن هذه الإيجابيات تمسك بعض المفكرين الإسلاميين به, وفهمه والدفاع عنه على مر عصور التاريخ مما حفظ له قوة الدفع والاستمرار وحفظ له روحه, ومعانيه باستمرار.

ومنها أيضاً (شموله) الذي يجعله قادراً على استيعاب التغير والتقدم واستيعاب المعاني والمفاهيم التي تنبثق من كل عصر ومن كل بيئة. فهو نفسه لا يتغير ولكن الذي يتغير هي الحياة بتجددها, وهذا التغير باستمرار وإلى الأبد يجد مكانه وموقعه تحت إطاره الفكري الشمولي المتكامل المتناسق المترابط. وهذا هو الذي يجعل لمفاهيمه فهماً على قدر الزمان والمكان. ثم فهما متجدداً بتجدد الزمان والمكان وهذا ما يفسر نسبته وإطلاقه. فهو نسبى يسمح للناس في كل زمان ومكان باستيعابه. وهو مطلق من حيث قدرته على تغطية كل زمان ومكان فهو أزلي أبدي ثابت مطلق.

ولعل من أهم إيجابيات هذا الدين الإسلامي أنه عامل تغيير مستمر للحياة نفسها, ولقوة هذه الإيجابية فسوف نناقشها بشيء ما من التفصيل.

الدين الإسلامي عامل تغيير اجتماعي:

لقد وصل علماء الاجتماع في تحليلاتهم الخاصة بالعقيدة بوجه عام إلى أن من أهم وظائفها هي تدعيم أنماط المؤسسات الاجتماعية. ومع ذلك فهناك حقيقة هامة أخرى مؤداها أن الدين لا يدعم باستمرار الوضع القائم ولكنه أيضاً يستثير الصراع الاجتماعي, كما يفتح الباب للتغير الاجتماعي. فدور العبادة التي يجتمع بها أعداد من المواطنين يمكنهم أن يتلقوا أفكاراً. وقيماً تقاس عليها كثير

من الأوضاع القائمة, ومن ثم فإن نوعاً من عدم الرضا على الأوضاع القائمة تحركهم نحو

التغيير ١[1].

ولعل الآية الكريمة القائلة: **(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)** توضيح موقف الإسلام من التغيير الاجتماعي, وتوضيح أن نقطة البدء في التغيير هي بناء البشر. ثم يعقب بناء البشر تغيير المجتمع.

إن قيم الإسلام إذا ما استوعبها الناس, واستوعبوا نظمه, وأهدافه, وشموله, وتكامله, ومبادئ العدالة, والمساواة, والحرية فيه فمما لا شك فيه أنهم سوف يحاولون تغيير الأوضاع الاجتماعية بحيث تتمثل ما في الإسلام من جوهر... وسيظلون يتطلعون إليه كمخلص لهم من الأنماط الاجتماعية التي لا تحقق لهم السعادة في حياتهم.

وهذا الاستيعاب الديني هو المحرك الأساسي لكثير من الثورات الإسلامية مثل الثورة الوهابية, والثورة المهدية, والحركة السنوسية, والحركة الإسلامية في مصر في القرن العشرين.

وهذا الاستيعاب الديني لا يتحقق عشوائياً أو بمحض الصدفة, وإنما يتحقق بالدارسة الواعية, والفهم العميق لاتجاهات الفكر الإسلامي, وأثرها في حياة الناس.

ومن هنا كانت التربية بمفهومها الشامل, المدرسي وغير المدرسي هي المدخل الوحيد لتلك الدراسة, وذلك الفهم الديني, ولذلك نجد أن القائمين بهذه الثورات هم علماء الدين الأذكياء الذين استطاعوا أن ينظروا إلى الإسلام بمنظار شمولي. وبهذا المنظار الشمولي استطاعوا أن يبرزوا جواهره القيمية, وتشريعاته الاجتماعية, والاقتصادية, والسياسية وأن يبسطوها للعامة, فتندفع العامة معهم مؤمنون بما يقولون وما يفعلون.

وإذا أردنا أن نتبين قوة الإسلام التجديدية, وقدرته الفائقة على التغيير فإن تمثل المجتمع الجاهلي لدليل قوي على ذلك.

فلقد كان مجتمعاً تجمعت فيه (كل انحرافات البشرية وشذوذها).مجتمع غابت عنه الفضيلة, والحكمة والعاطفة البشرية, غاب عنه العلم, والمنطق البشري, والخلق الإنساني. والأمثلة على ذلك عديدة تجل عن الحصر فهو مجتمع يعبد أصناماً لا تنفع ولا تضر, فاقدة للحس والحركة؛ والحيوية

والحياة!. وهو يقتل فيه الأب أولاده خشية إملاق. **(وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت)**. أليس هذا قتل لأقوى العواطف في الإنسان, وهي عاطفة الأبوة والأمومة!! كما ساد في هذا المجتمع الكذب والسرقة والزنا والقتل والاغتصاب كظواهر عامة فيه, ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة لهم حتى قبل البعثة ظاهرة بشرية نادرة, ولذلك أطلقوا عليه الصادق الأمين تمييزاً له عن هذا المجتمع الشاذ.

وهنا تظهر قوة الإسلام الحقيقية في التغيير وكأنما يختار هذا المجتمع ليضرب مثلا للبشرية عبقرياً معجزاً. ليثبت من خلاله قدرته على التغيير السريع القوي ففي مدى زمني قصير جداً لا يبلغ نصف القرن كانت قد تغيرت خريطة العالم كلها. واختار الإسلام حدود الجزيرة العربية لينشر ألويته على بلاد من أفريقيا وآسيا متطلعاً إلى بقية قارات العالم. فإذا ما قارناه بدين آخر. مثل دين نوح مثلا لرأينا البون شاسعاً جداً.

فلقد مكث سيدنا نوح يدعو الناس ما يقرب من تسعمائة وخمسين سنة فما آمن معه إلا قليل!!.

فإذا كان للإسلام هذه القوة في التغيير والتجديد فلماذا لم يعم بلاد العالم كلها حتى الآن وخاصة أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما من البلاد التي تحمل مشعل الحضارة المعاصرة. وهل يقتصر على تغيير وبعث البلاد المتخلفة والشاذة مثلما حدث في بدايته؟.

الواقع أن هناك سوء فهم قاسي للإسلام عند كثير من المفكرين على مختلف تخصصاتهم في بلاد العالم المعاصر وخاصة في أوربا. فهم لم يدركوا الإسلام بعد بعمقه, وبشموله, وبعقلانيته, وباحتضانه للفكر المختبر في مجالات العالم والكون والطبيعي.

ولعل ذلك قد كان سبباً رئيسياً لعدم اعتناق أوربا له حتى اليوم, فالعقلانية التي يؤمنون بها. ويقدسونها لا يجدونها في المسيحية مما يجعلهم يعممون على العقائد الدينية كلها بما فيها الإسلام بأنها لا تخضع لها. فإذا كان اعتناقهم للمسيحية لا يخضع للمنطق العقلاني هذا, ولا يدركون في إطارها أية صلة بين المسيحية (العقيدة) والعلم الطبيعي فما الذي يدفعهم إلى ترك دين لا يخضع للعقلانية, ولا يحتضن العلم الطبيعي إلى دين آخر يخضع في فهمهم لهذه اللاعقلانية واللاعلمية.

ونتساءل من المسئول عن ذلك الوضع؟. نحن المسلمون المسئولون عن ذلك لسببين رئيسيين:

أولهما: أن غالبية مفكرينا المقتدرين لم يستوعبوا كل أبعاد عقلانية الإسلام وعلميته حتى يمكنهم أن يقدموه للعالم الإسلامي أولا. وللعالم الإسلامي ثانياً في صورته الحقيقية.

وثانيهما: أن العالم الإسلامي نفسه قد تأثر بمعتقدات تعصب لها. وليس لديه ـ لدرجة كبيرة ـ استعداد لدراسة غيرها, واستيعابها للسبب الذي ذكرناه سابقاً وهو اقتناعه بأن الأديان كلها تتناقض مع فكرتي العقلانية والعلمية ولا تخضع لهما.

وفي هذا يقول أحد علماء الاجتماع الغربيين وهو ديفيد بروبينو ما يلي: (إن الدين يوجد في جميع

المجتمعات البشرية, وهو أسلوب حياة اجتماعي يؤدي بها إلى علاقة مع جميع مظاهر الحقيقة غير

العقلية وغير التجريبية)٢[2].

فإذا كان الأمر كذلك فما الذي يجعل الأوربيين والأمريكيين مثلا أن يتحولوا من دين لا عقلاني, ولا علمي!. أما إذا برزت معالم العقلانية والعلمية في ديننا لا نحني له العلماء الغربيون بصفة خاصة, وغير الغربيين بصفة عامة.

ومع ذلك فإن أعداداً لا بأس بها تعتنق الإسلام اليوم في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية, وكندا.

ما هي الأسباب الرئيسية في إدخال هذه السلبيات في ثقافتنا:

إن عوامل كثيرة قد تكاتفت للنيل من ثقافتنا. ومن أهمها التخلف الاقتصادي والتخلف الفكري, والتخلف الاجتماعي بوجه عام. كل ذلك كان سبباً في فقداننا الوعي والإدراك.

وكذلك تعتبر القوى العالمية المعادية للإسلام عوامل مسببة للتخلف الثقافي بوجه عام, وعوامل أساسية في محاربة الثقافة العربية الإسلامية وغرس السلبيات بها.

فالروح الصليبية العدائية للإسلام, والروح الصهيونية المضادة لهذا الدين, وما وراءهما من تنظيمات ماسونية, وما خلفهما من مخططات سرية قد استهدفت النيل من هذه الثقافة العربية الإسلامية, فحاولت إضعافها بشتى الطرق, فغزتها من كافة المداخل, واستخدمت أدنأ الأسلحة, وأخسها في غلاف من السلوفان الذي أحياناً ما كان ينسب إلى العلم. والدراسة التجريبية.

وحينما غزتنا الثقافة الغربية كنا في حالة ركود تامة: ركود اجتماعي, وتخلف اقتصادي وضعف فكري وروحي بفعل عوامل كثيرة؛ منها الخلافات والحروب التي نشبت بين أمراء المسلمين, ومنها الخدع اليهودية التي تعرض لها الإسلام منذ وجد على ظهر الأرض, ومنها الاستعمار التركي وإدخاله مفاهيم خاطئة في مفاهيم الإسلام بل إحلال هذه المفاهيم الخاطئة

محل مفاهيم الإسلام ذاتها, فأثرت كثيراً في الحياة في جميع جوانبها السياسية والجهادية, والاقتصادية, والاجتماعية, وأصيبت الحياة بالجمود والتخلف خاصة في مفاهيم العمل والإنتاج.

والحق أن الغزو الثقافي الغربي في بداية القرن التاسع عشر كان يحمل معه مثيرات كثيرة أيقظت الوعي الإسلامي عند المسلمين في مصر على خصائص ثقافية لم يحسوا بغربتها عنهم, وإن كانت غير موجودة في حياتهم في زمن تلك الغزوة. ولكنها كانت في الأعماق الفكرية لهم. وترددها كتبهم وقرآنهم. ومن هذه المثيرات حياة الديمقراطية الجديدة ومجالسها التي أيقظت عند المسلمين فكرة الشورى في الإسلام, ومنها أيضاً العلم ومسح الأراضي وقياسها ورسم الخرائط. وهذه الأخرى أيقظت عندهم معاني لكلمات وألفاظ كانت تتردد بينهم عن تاريخ لعلماء ومفكرين نشأوا في ظل الإسلام كانت لهم مثل هذه التجارب والمحاولات. وهذه بعض الأمثلة البسيطة على تلك المثيرات ولكنها عديدة تجل عن الحصر.

وحينما استيقظ المسلمون ودب فيهم الوعي الثقافي الإسلامي بفعل هذه المثيرات حاولت التقوى الأوربية أن تنال من هذه اليقظة وأن توحلها إلى يقظة تسير في ركاب ثقافتها المادية. ومن هنا كانت المحاولات الواضحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي لتغريب مصر.

ولقد استهدفت هذه القوى التأثير على جميع وسائط التربية, ونقل الثقافة استهدفت الأسرة لتكسبها عادات, وتقاليد, وعرف, وتنظيمات قد لا تتمشى مع الإسلام في كثير منها.

واستهدفت التأثير على وسائل النشر. والدعاية, والإعلام المختلفة من إذاعة وتلفيزيون, وصحافة, وكتب أدبية وكتب علمية حتى نعيش في جو محالف إلى حد كبير أو صغير مع قيم الإسلام, ومضامينه, وأهدافه, وتفسيراته للحياة, والوجود, وللكون, وللإنسان, ولأصله, ولمصيره.

وفي الوقت الذي حاولت فيه هذه القوى محاربة القيم ذات المحتوى الإسلامي في أمتنا كانت تحاول هذه القوى أن تدرسها لتأخذ منها ما يفيدها في حياتها ولكنها تضعها في إطار فكرها هي.

أخذت منا مثلا قيمة العلم, والبحث العلمي ومناهجه, ولكنها حاولت أن تباعد بينه وبين إطارنا, وأخذت منا قيمة العمل وإتقانه والإخلاص فيه, وبنت حضارتها به, وحاولت أن تباعد بينه, وبين إطاره الحقيقي... الإطار الإسلامي... وأخذت قيم العدالة, والمساواة, والحرية, والإخاء, وحاولت أن تصيغها في ثياب المدنية الغربية, وفي إطارها محاولة إبعاد عن منظومتها القيمية الإسلامية.

وأخذت منا نظام التعليم, وجوهر التربية, ولكنها شتتتها, فتشتت هذه المجتمعات الغربية بسبب ذلك. وناقضت كل نظرية تربوية أخرى, لأنها افتقدت الربط بالمصدر الأصلي الذي اقتبست منه, وبالتالي ناقض كل مجتمع في أوربا شقيقه الأوربي, وراح يتصارع معه في حروب لا نهاية لها...

وحينما اقتبسنا منهم في الوقت الحاضر اقتبسنا هذه الأفكار المتصارعة في بلادنا, والمتصارعة في نفس الوقت مع قيمنا فعشنا الصراع محتدماً مريراً.

ولكن لماذا هذا العداء للإسلام ولقيمه من قبل الغرب والصهيونية والشيوعية؟.

الواقع أن الإسلام لا يعادي إلا الظلم والجور واستغلال الإنسان. والغرب وقد استبد به الظلم. وسيطرت عليه مجموعات من القوى الاستعمارية, والقوى الكهنوتية والقوى الإلحادية. فإن هذه القوى تخشى على كياناتها منه. ولذلك فقد اشتركت في مخططات للنيل منه في عصور التاريخ المختلفة منذ أن ظهر الإسلام كقوة عالمية مؤثرة, ولقد اختلفت هذه المخططات من وقت لآخر. كما اختلفت حدة هذا العداء من وقت لآخر, ومن مجتمع لآخر. ولكنها لم تختف يوماً ما, ولم تغفل لحظة من لحظات التاريخ في مواصلة عدائها للإسلام, ورسم المخططات للإجهاز عليه!!.

وفي الوقت الذي يعجز فيه المسلمون عن اليقظة الحضارية الإسلامية لأسباب التخلف التي سبق ذكرها يحاول الغرب أن يقدم لهم نماذج حضارية براقة مشفوعة بالإغراء الجنسي, والإغراء المالي استدانة, ورهناً.

وتقدم هذه النماذج الحضارية من خلال السينما, والمسرح, والصحافة, والقصص الجنسي المبتذل.

كما تقدم من خلال الأزياء, وبيوت عرضها, ومن خلال الأسفار والاحتكاكات الثقافية التي تتيح الفرص للشباب والشواب ... بل تغريهم بمسايرة حياة المجون الأوربية.

ولقد نجح الغرب في خلق مجموعات متخصصة من أبناء البلاد الإسلامية لتبنى هذه النماذج الحضارية الغربية بما تحويه من قيم هادمة لقيمنا الإسلامية.

كما نجح في غزو الإطار التربوي في القطاع التربوي على مستوى التربية المدرسية كذلك! وتبنى أبناء الإسلام هذا الغزو بالوعي وباللاوعى.

الفصل الثاني

دور التربية في تحرير الثقافة الإسلامية

تسألنا عن دور التربية في رد مكونات ثقافتنا إلى مسارها, ووضعها الحقيقيين في ظل إطارنا الفكري الحقيقي, وهو الإطار الإسلامي؟. وكيف لها أن تؤديه؟. وكيف تتخلص من السلبيات التي حلقت بها, وعوقت مسيرتها نحو هذا الإطار الثقافي الإسلامي؟

وهذا الإطار الفكري الإسلامي لا يتجسد ثقافة المجتمع ونظمه وبنيات هذه النظم بمجرد سن القوانين وإصدار التشريعات فحسب؛ وإنما لا بد أن يتواكب معه, ويتأيد بالتربية الإسلامية, وذلك حتى يتلاقى الضبط الداخلي الذاتي مع الضبط الخارجي الموضوعي. أي تتلاقى المثل, والقيم, والحوافز المنبعثة من داخل النفس مع هذه القيم حينما تتجسد التشريعات, وتصبح روحاً للقوانين, وللأنظمة المختلفة في المجتمع.

إن هذا الضبط الداخلي, وذلك الضبط الخارجي لن يتحققا في الإنسان المسلم, وبالتالي في المجتمع المسلم: نظماً, وثقافة في إطار التربية الحالية التي تتبناها مدارس التعليم, وتتبناها وسائل نشر الثقافة الأخرى من صحافة, وإذاعة وتليفزيون, ومسرح وسينما, ذلك لأن الطابع الغالب عليها طابع غربي, وهذا الطابع الغربي يؤكد الجانب المادي في الحياة, ويطغى به على ما في الحياة من قيم أخرى. بل يوظف هذه القيم الإنسانية الأخرى لتكون في خدمة هذا الجانب المادي.

إن ذلك يتطلب (إعادة بناء التربية) في وطننا العربي ثم بالتالي في بلاد الإسلام كلها.

وإعادة البناء التربوي لا يقتصر على التربية في المدارس, وإنما يمتد إلى التربية التي تتم في كل موقع في المجتمع ... في الأسرة, وفي المسجد, وفي الأندية, وفي المسرح, وفي السينما, وفي الصحافة, وفي وسائل الإعلام المختلفة...

كما لا يقتصر على عنصر من عناصر التربية, وإنما يشملها جميعاً, فيبدأ ببناء الأهداف التربوية لكل من المجالين التربويين: المجال المدرسي, والمجال خارج المدرسة بحيث تعكس هذه الأهداف أهداف المجتمع الإسلامي, وغاياته. كما يستمر ليشمل بناء الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الأهداف من إعداد للمدرس وبناء للمناهج والوسائل التعليمية, وتأليف الكتب المدرسية وبناء المدرسة, ومحتوياتها. هذا في المجال المدرسي أما المجال خارج المدرسة فيحتاج أيضاً إلى أن تسير الأهداف التربوية فيه مع الأهداف التربوية المدرسية, وأن يتم إعداد القائمين في مجالها بأي نشاط تربوي وثقافي إعداداً في إطار الفكر التربوي الإسلامي, كما أن الوسائل المختلفة التي تتم في هذا المجال ينبغي عليها هي الأخرى أن توجه في ظل هذا الإطار.

إن مناهج التعليم تعالج في مدارس الأمة الإسلامية بأسلوب يبعد بينها وبين المعاني التي يجب أن تعيش بها هذه الأمة.

إن بعض هذه المناهج تعالج متأثرة بمعالجات لها في الغرب, والمعروف أن الغرب غربة, وشرقه يعالج العلوم الطبيعية مثلا مقطوعة الصلة بخالقها, وبالنظام الكوني العام الذي خلقه الله. ويعالج العلوم الإنسانية في ظل تحليلات مادية لها. فالتاريخ يعالج في روسيا وأوربا الشرقية, ويفسر في ضوء التحليل المادي. وشبيه بهذا ما تفعله أوربا مع فارق وحيد هو أن أوروبا الغربية تطلق على التحليل المادي التحليل العلمي محاولة أن تفسر التاريخ بأسلوب آخر يختلف عما تذهب إليه روسيا السوفيتية. ولا يعدو كل من التحليلين أن يكونا تحليلين مذهبيين.

أما النظرية الإسلامية فهي ذات أبعاد وزوايا متعددة متكاملة لا تغلب التفسير المادي على غيره من التفسيرات. ولا تهمل التفسير العلمي, ولا تهمل قيم الإنسان العليا. وإنما تشكل القيم الإنسانية العليا. مع التفسير العلمي زوايا أساسية في هذه النظرة المتكاملة للإنسان, ولتاريخه, وللطبيعة التي يحيا فيها والتي تفقد معناها بدون قيم للإنسان, ونظرته لها.

إن العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الحياة أمر لا يرفضه فكرنا, فقد نبع في أحضان الفكر الإسلامي وتبناه علماء المسلمين, ونما على أيديهم, كما طبقت نتائجه في واقع حياة مجتمعاتهم.

ولكن الإطار الفكري الذي يحاول الغرب أن يلوي به الحقائق ليبعدها عن خالق الكون, وسيطرته المطلقة عليه, وتنظيمها وفقاً لإرادة هذا الخالق العظيم فهو أمر يتناقض تماماً مع إطارنا الفكري الإسلامي.

إن الكون والحياة, والإنسان, وتاريخ هذا الإنسان هي من صنع هذا الخالق وبالتالي فإن تنظيمها يتم وفقاً لإرادته.

ولذلك فإن تفسير الكون والحياة, والإنسان وتاريخه ينبغي أن يشق طريقة في تربيتنا من منطلقات إسلامية, ولابد أن يرتبط هذا التفسير بالخالق الأعظم لهذا الكون, ولهذه الموجودات.

وبالتالي فإن كل منهج دراسي, وكل مقرر مدرسي, وكل حقيقة علمية ينبغي أن تجد مكانها في نطاق هذا التفسير الكلي الإسلامي.

إن تاريخ الإنسان مثلا يفسر في ظل المادية الجدلية على أنه صراع طبقات إلى أن ينتهي الأمر إلى اختفاء الدولة والأسرة, وكل نظم اجتماعية نشأت بنشأة الإنسان حتى يصل الإنسان في النهاية إلى أن يجد ما يحتاج إليه بجهد أو بدون جهد. وهو تفسير ساذج قد يناسب عصراً غير عصرنا, وزماناً غير زماننا.

لماذا لا يفسر تاريخ البشرية على أنه نضال مستمر من الناس من أجل البقاء والاستمرار الحيوي والثقافي في ظل إطار من القيم الإنسانية المتكاملة. ومنها قيم مادية, وقيم معنوية لا تطغى إحداهما على الأخرى, وما أرفع قيم الإسلام المادية والمعنوية وما أسماها.

لماذا لا تتضمن مناهج التعليم في اللغات مثلا قيم الإسلام, وقيم العرب المتمشية مع الإسلام.

لماذا لا يكون لنا أدب نابع من الفكر الإسلامي ومن منهج الإسلام في الحياة ومن تصوراته للكون وللخالق وللحياة وما بعد الحياة.

يقول كاتب معاصر في هذا الصدد: (ولقد يكون الأدب أشد المؤثرات في تكوين فكرة وجدانية عن الحياة, وفي طبع النفس البشرية بطابع خاص. ومن هنا يجب أن يكون لنا أدب نابع من التصور الإسلامي):

الأدب ـ كسائر الفنون ـ تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان. هذه القيم قد تختلف من نفس إلى نفس, ومن بيئة إلى بيئة. ومن عصر إلى عصر ولكنها في كل حال تنبثق من تصور معين للحياة, والارتباطات فيها بين الإنسان والكون, وبين الإنسان وبعض.

ومن العبث أن نحاول تجريد الأدب أو الفنون عامة من القيم التي يحاول التعبير عنها مباشرة أو التعبير عن وقعها في الحس الإنساني. فإننا لو أفلحنا ـ وهذا متعذر ـ في تجريدها من هذه القيم, لن نجد بين أيدينا سوى عبارات خاوية, أو خطوط جوفاء, أو أصوات غفل, أو كتل صماء.

كذلك من العبث محاولة فصل تلك القيم عن التصور الكلي للحياة, والارتباطات فيها بين الإنسان والكون وبين بعض الإنسان وبعض, ويستوي أن يشعر الإنسان بأن له تصوراً خاصاً للحياة أو لا يشعر, لأن هذا قائم في نفسه على كل حال, وهو الذي يحدد قيم الحياة في نظره, ويلون تأثراته بهذه القيم...

والإسلام تصور معين للحياة, تنبثق منه قيم خاصة لها, فمن الطبيعي إذن أن يكون التعبير عن هذه القيم, أو عن وقعها في نفس الفنان, ذا لون خاص.

وأهم خاصية للإسلام أو عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة, تملا فراغ النفس والحياة, وتستنفر الطاقة البشرية في الشعور والعمل, وفي الوجدان والحركة, فلا تبقى فيها فراغاً للقلق والحيرة, ولا للتأمل الضائع الذي لا ينشى سوى الصور والتأملات.

وأبرز ما فيه هو الواقعية العملية حتى في مجال التأملات والأشواق. فكل تأمل هو إدراك أو محاولة لإدراك طبيعة العلاقات الكونية أو الإنسانية, وتوكيد للصلة بين الخالق والمخلوق, أو

بين مفردات هذا الوجود. وكل شوق هو دفعة لإنشاء هدف, أو لتحقيق هدف, مهما علا واستطال.

وقد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها, لا للرضا بواقعها في زمان ما أو في مكان ما. ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكوابح, ومن نزعات وقيود, سواء في فترة خاصة, أو في المدى الطويل.

مهمة الإسلام دائماً أن يدفع بالحياة إلى التجدد والتطور والرقى, وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع.

ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامي للحياة, قد لا يحفل كثيراً بتصوير لحظات الضعف البشري, ولا يتوسع في عرضها, وبطبيعة الحال لا يحاول أن يبرزها, فضلا على أن يزينها بحجة أن هذا الضعف واقع. فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه.

أن الإسلام لا ينكر أن في البشرية ضعفاً, ولكنه يدرك كذلك أن في البشرية قوة. ويدرك أن مهمته هي تغليب القوة على الضعف, ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها, لا تبرير ضعفها أو تزيينه.

والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامي للحياة قد يلم أحياناً بلحظات الضعف البشري, ولكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من هذه اللحظات, وإطلاقها من عقال الضرورة, وضغطها, وهو لا يصنع ذلك متأثراً بالمعنى الضيق لمفهوم (الأخلاق) إنما يصنعه متأثراً بطبيعة التصور الإسلامي للحياة, وبطبيعة الإسلام ذاته في تطوير الحياة وترقيتها وعدم الاكتفاء بواقعها في لحظة أو فترة.

والنظرية الإسلامية لا تؤمن بسلبية الإنسان في هذه الأرض, ولا بضآلة الدور الذي يؤديه في تطوير الحياة, ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامي لا يهتف للكائن البشري بضعفه ونقصه وهبوطه, ولا يملأ فراغ مشاعره وحياته بأطياف اللذائذ الحسية, أو بالتشهي الذي لا يخلق إلا القلق والحيرة والحسد والسلبية. إنما لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء

والطلاقة, ويملأ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التي تطور الحياة وترقبها. سواء في ضمير الفرد أو في واقع الجماعة.

الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامي أدب أو فن موجه, يحكم أن الإسلام حركة تطوير مستمرة للحياة, فهو لا يرضى بالواقع في لحظة أو جيل, ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع. فمهمته الرئيسية هي تغيير هذا الواقع وتحسينه, الإيحاء بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة.

فالمحور الذي تدور عليه حركة التطوير في الفكرة الإسلامية هو تطوير البشرية كلها, ودفعها إلى الانطلاق والارتفاع, وإلى الخلق والإبداع, وفي الطريق يلم بآلام الطبقات وقيودها, ليحطم هذه القيود, ويزيل تلك الآلام.

أنه لا يحقر آلام البشر, ولكنه لا يستخدم الحقد الطبقي لإزالتها, لاعتباره أن الحقد ذاته قد يحول دون انطلاق البشرية إلى آفاق عليا!)١[1].

ولذلك فإن آدابنا, وفنوننا ينبغي أن تتطهر, وفقاً للروح الإسلامية وللقيم الإسلامية.

وإذا كان التاريخ تفسيراً لوقائع الحياة, فإنه يتأثر بالإطار الفكري للحياة والتصور العام لها. كما يظهر في الفلسفة التي يتبناها المجتمع. ومن هنا انحرف التاريخ عن مسار الفكر الإسلامي لأننا تأثرنا في دراسته بالفلسفات الغربية.

أما التاريخ في ظل التصور الإسلامي فأمر مختلف تماماً لأن العوامل الروحية والفكرية, والقيم العليا, والمثل الفاضلة لا تقل تأثيراً في مجريات التاريخ وتفسيره عن القوى المادية.

ولذلك فإن الباحث في التاريخ ينبغي أن يعيش بعقله وروحه وحسه في جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام. وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشر الواقعية)٢[2]...

١[١] سيد قطب, العدالة الاجتماعية في الإسلام, دار الكتاب العربي, بيروت.

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية, ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان, ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة, وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك العقيدة)٣[3]. وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير عربي بوجه عام, ولا عند غير مسلم على وجه التخصيص, التي لابد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامي.

(إنه لابد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس في خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية, وعلاقة هذه البواعث بالحوادث, والتطورات, والانقلابات, ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح انقلابية ثورية ـ لا في شكلها الخارجي وخطواتها العلمية فحسب.

ـ ولكن في تفسيرها للعلاقات الكونية, والعلاقات الإنسانية, والعلاقات الاجتماعية, وفي تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع ووسائل التنفيذ ... الخ. وهي كلها من مقومات الحياة, وبالتالي من مقومات التاريخ لهذه الحياة)٤[4].

إن إعدادنا للمعلم في كليات التربية يقتصر على تخصصه في فرع تخصصي لا يستطيع معه أن يربط بينه وبين غيره من التخصصات, ولا بينه وبين الحياة, ولا بينه وبين الكون وخالقه. وإنما يقتصر على معالجات جزئية فرعية. مع أن هذا المعلم يعيش في عالم إسلامي, له فكره الإسلامي, وأهدافه الإسلامية, وأهدافه التربوية الإسلامية. وكان ينبغي أن يعد في

٢[٢] المرجع السابق, ص ٢٦٥.

٣[٣] المرجع السابق, ص ٢٦٥.

٤[٤] المرجع السابق, ص٢٦٦.

نطاق هذا الفكر, وتلك الأهداف حتى يستطيع معالجة تخصصه في ظل هذا الإطار ومحفوزاً به لتحقيق أهداف المجتمع الإسلامي في الناشئة والشباب.

إن الكتب الدراسية لا تتمثل القيم الإسلامية إلا في قليل من محتواها, لعجز مؤلفيها, وواضعي المناهج عن ربط هذه القيم الإسلامية بمحتويات الكتب أو المناهج الدراسية, أو تضمين الكتب لهذه القيم مع أنها ترى الكتب تثرى لا حد له.

وسوف نستعرض في وضع لاحق بعض مضامين التربية الإسلامية التي يمكن للأهداف وللمناهج, وللكتب الدراسية, وللوسائل التربوية أن تستبطنها في داخل محتوياتها حتى تصبح بمثابة الأعصاب التي تشكل في النهاية الجهاز العصبي والمخ في هذه العناصر التربوية كلها.

إن الطرائق والأساليب التربوية المتبعة في مدارسنا, بل في كل وسائط الثقافة والتربية غير المدرسية تبتعد كثيراً عن الروح الإسلامي, وعن الأساليب الإسلامية في التربية والتنشئة.

فالإسلام يتعهد الناس, والناشئة بتنشئتهم على قيمه الروحية, والخلقية والجهادية, والاجتماعية والإنسانية بأسلوب مفصل دقيق, وهذا التعهد يؤخذ بحزام وإصرار ودافعيه, وشوق, وإثابة دنيوية وأخروية,

وهذه التربية هي التي خلقت أجيال القادة العادلين, والمجتمعات الإسلامية الخيرة, والمجاهدين في سبيل القيم والمثل العليا الإسلامية.

وأساليب هذه التربية بسيطة غاية في البساطة, واقعية بشكل تتحقق معه كل أهداف التربية.

وأساليب تجسدت فيها كل معاني الحفز والدافعية, والحب, والتعاون, والإيثار, كما أنبأت عن وضوح الغاية, والهدف, والرؤيا الموصلة إليهما.

أساليب أنبأت عن فهم للطبيعة البشرية, ولطبيعة الكون والحياة, وللقيم الإنسانية التي تتضمنتها الفكرة الإسلامية.

أساليب لم تنفصل الفكرة فيها عن تطبيقها, وإنما شكلت الفكرة وتطبيقها واقع السلوك البشرى في كل مجال من مجالات الحياة, وبذلك ارتبطت التربية بالحياة بكل وظائفها.

الفصل الثالث

المحتوى التربوي الإسلامي

إن هذا الموضوع يطرح سؤالا, على التربويين أن يجدوا إجابته حتى تصبح التربية ذات محتوى إسلامي, ومؤداه: كيف تستبطن التربية مفاهيم هذا الفكر الإسلامي, وكيف تعكسها في مفاهيم تصاغ في إطارها الأهداف التربوية, والمناهج, والوسائل التربوية, وتعمل على تشكيل التربية بكل عناصرها؟.

كما يطرح هذا السؤال نفسه سؤالا آخر مؤداه: ما هي مضامين الفكر الإسلامي حتى تتضمنها التربية لكي تصبح جديرة بأن تكون تربية للمسلمين, ولأبناء المسلمين وحتى يبنون مجتمعاتهم على منهج إسلامي مشرق, ومشرف.

وهذه المضامين يعجز هذا البحث عن تقصيها, وإنما حسبه أن يشير إلى بعضها كأمثلة غنية تثرى محتوى المناهج المدرسية, والأهداف التربوية, والطرق التعليمية.

المضامين التربوية في الإسلام:

والآن نتساءل عن المضامين المختلفة في الإسلام, وهي تلك المضامين التي يمكن أن تكون محتوى أساسياً للتربية في بلادنا الإسلامية. وبالتالي يمكن أن يتحرك الواقع حركة اجتماعية نحو التغيير الشامل لحياة أفضل.

إن التربية الإسلامية منهج لتنشئة المجتمع على الإسلام بتصوراته, وقيمه ونظرياته في مختلف مناشط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن هنا كان قيامها على إطار متناسق متسق من النسق الفكري الذي يبدأ بالعقيدة, وبالقيم, وبالتصورات, وبالنظريات الإسلامية, وبمناهجها في كافة مجالات الحياة البشرية المختلفة.

فعقيدته تؤكد مبدأ وحدانية الله, ثم يبنى عليها كافة التشريعات, والنظم والتنظيمات في الحياة كلها. دنياها وأخراها, بسيطها, ومركبها.

ثم يؤكد منهجاً علمياً ديناميا, يستهدف توجيه الواقع, ليقضى على ما فيه من سلبيات وليؤكد ما فيه من إيجابيات, ويعدل ويغير ما يراه في حاجة إلى تغيير ـ ومن هنا اتصف هذا المنهج بالواقعية, وبالتشريع للواقع. فهو منهج للواقع ولتوجيه صوب التقدم. فهو يستجيب لمقتضياته ويواجه مشكلاته, ويجيب على تساؤلاته, ويحسم قضاياه. ويغير, ويبدل في أحوال البلاد والعباد في إطار قيمه ومبادئه وأخلاقياته, أي في إطاره الشمولي التكاملي العام والمضامين التربوية في الإسلام تنشد في القرآن وفي سنه رسول الإسلام.

والقرآن ليس كتاباً يحوي فلسفة نظرية مجردة, ولا كتاباً أدبياً للمتعة الأدبية, ولا كتاب تاريخ لسرد القصص والأساطير للتسلية ولا كتاب علم, ودعوة إلهية فحسب, وإنما هو منح حياة, ودستور للبشر في كل زمان ومكان. ودليل إعجاز, ومحيط علم وسع كل شيء, وخلاصة تاريخ البشر بأسلوب أدبي فني معجز, بها يستفيد البشر من تجارب السابقين وخبراتهم في مجال الفضيلة, والحق, والخير, والجمال.

وفيه تصور لحقيقة الوجود,والوجود الإنساني في نطاقه. ومن خلال هذا التصور تتحدد التصورات للحياة, والقيم, والأخلاق, كما تتحدد مناهج وأصول السياسية والحكم, والاقتصاد, والمجتمع, والتربية, وجميع مقومات الحياة.

إن النظرة الإسلامية للوجود, وللحياة, وللإنسان نظرة شمولية تكاملية واقعية, وهي ليست تصوراً معرفياً مجرداً, وإنما يتمثل هذا التصور التكاملي في أناس, كما يتمثل في تنظيماتهم وفي حركتهم الاجتماعية, فيتكامل الأساس النظري مع الواقع الاجتماعي.

والدين الإسلامي بهذا المنطق دين واقعي في أهدافة, ووسائله, ومناهجه في الحياة. نزل للواقع المتجدد للبشرية, ومن ثم فهو دين كل البشر, ولكل مجتمع, ولكل عصر.

إن الإسلام رسالة الإنسان في هذه الدنيا. ومن ثم فإن التربية الإسلامية تعد الإنسان لتحمل هذه الرسالة. وتتطلب هذه الرسالة عقيدة, وغاية, ودستوراً, وتشريعاً خلقياًً, واجتماعياً, وسياسياً واقتصادياً ومن هذه الأمور كلها تتحدد أهداف التربية في الإسلام, فتصبح أهداف التربية أهدافاً عقائدية, وأهدافاً سياسية, وأهدافاً خلقية, وأهدافاً اجتماعية, وأهدافاً اقتصادية.

وإذا استعرضنا المفاهيم التربوية في الإسلام لوجدنا أنها قد استغرقت هذه الأهداف السابقة كلها, واستغرقت المناهج والوسائل والأساليب التي تحققها.

ففي الإسلام مفاهيم تربوية عديدة خاصة بالتآخي الإنساني كأساس للتماسك, والبنيان الاجتماعي. وهذا التماسك بدوره هو أساس جميع القيم, والاتجاهات الإيجابية في الحياة الاجتماعية من إيثار, وتعاون, وتكافل اجتماعي...الخ.

وفيه مفاهيم خاصة بعلاقة الأبناء بالآباء, والآباء بالأبناء. وأساليب تربية هؤلاء الآباء لأبنائهم, وأساليب الاحترام للآباء, والتلقي منهم في أساليب التربية الإسلامية المحددة.

وفيه ـ كما سبقت الإشارة ـ مفاهيم, وقضايا عن الحياة, وعن الكون, وعن الإنسان, وعما بعد الحياة بأسلوب استفهامي يخاطب به عقل الإنسان, ووجدانه. ثم يقوده, ويوجهه إلى الطريق الموصل إلى الإجابة عن كل ما يصادفه في حياته من أسئلة خاصة بهذه القضايا الكبرى. وكثيراً ما يجيب عن هذه الأسئلة بأسلوب عقلي علمي خال من الخرافة والأساطير.

ويوجهنا هذا الأسلوب إلى الأساليب التربوية العلمية في معالجة قضايا الحياة والفكر. وبقدر ما تساعد هذه المفاهيم الإسلامية الإنسان على أن يجد إجابة لكثير مما يطرحه حب استطلاعه عليه من أسئلة, فإنها تحقق مطلباً نفسياً هاماً في حياة الإنسان.

بل إن هذه المفاهيم الإسلامية تساعد الإنسان على تحديد دوره الاجتماعي في الحياة الاجتماعية في جميع أبعاده الأسرية, والسياسية, والاقتصادية, وهذا ما يحقق له مطلباً اجتماعياً أساسياً حينما ينشد أن يأخذ دوراً مرموقاً في حياة الكبار, وهي بذلك تساعد على أن يخرج من ذاته, ليسهم في حياة الكبار وبتوافق مع عالمهم.

إن في الإسلام مفاهيم اجتماعية ونفسية وأخلاقية عن الأسرة ودورها في المجتمع, ودور الأب المسلم, ودور الأم المسلمة, ودور الابن المسلم, ودور كل إنسان في حياة المجتمع الأكبر.

كما أن به مفاهيم عن العلاقات الزوجية والأسرية بوجه عام, وعن الوظائف المختلفة التي تحققها الأسرة في البناء الاجتماعي الكبير للمجتمع, وعن الوظائف النفسية والأخلاقية, والاجتماعية

للأسرة, وعن العلاقات المختلفة التي تدور في محيط الأسرة, وتدور في المجتمع, ويكون للأسرة دور فيها, وفي الإسلام مفاهيم تربوية كاملة عن العلاقات بين الجنسين وعن أهمية البناء الأسري في إشباع كثير من المطالب النفسية والاجتماعية, والفيزيولوجية للإنسان.

وفي الإسلام مفاهيم عن الحقوق والواجبات الاجتماعية في شتى مجالات الحياة التي يمارسها الإنسان, وهي محددة تحديداً دقيقاً واضحاً بحيث تسهم في بناء الإنسان, وبناء المجتمع. بناء الإنسان خلقياً, واجتماعياً, وسياسياً, واقتصادياً على ما في الدين الإسلامي من قيم هي أرقى القيم الإنسانية, وأسماها وأشرفها على الإطلاق.

وبناء المجتمع في كافة أنظمته الاجتماعية, بحيث تتجسد قيم الإسلام, ومفاهيمه في كافة العملية التربوية: أهدافها, ومناهجها, ووسائلها. وطرقها.

وفي التربية الإسلامية يلتقي البناء القيمي للمسلم مع البناء القيمي للمجتمع المسلم, فتتسق الحياة الفردية مع الحياة الاجتماعية للمجتمع, وتسير في إيقاع هادئ مطمئن نحو المثل العليا للروح الإسلامي المتسامق.

وقيم الإسلام لا ترتبط بالأخلاق فحسب, ولا ترتبط بقيم عليا عن الحياة الآخرة ونعيمها فقط؛ وإنما يظهر عمق هذه القيم بارتباطها بكل ما يعمر الدنيا من (عمل) و(إنتاج). وقيمة العمل في الإسلام تتلخص فيها كل معاني الإيثار, وحب الآخرين, والارتباط بالكيان البشري الكلي في الحياة الاجتماعية. كما تتلخص فيها كل معاني الوازع الديني, والضمير الإنساني, ومراعاة الله في العمل, وتجويده, وتحسينه. وفيها كل تطلعات للثواب الإلهي في الدنيا وفي الآخرة, فثواب الدنيا يتمثل في (البركة) و (الخير) الذي يعم عليه بسبب مراعاته لمراقبة الله في عمله. وثواب الآخرة يتمثل في جنات عرضها السماوات والأرض أعدت (للمتقين).

وقيم الإسلام ترتبط بقيم التفكير, والتحليل, والدراسة للكون المحيط بالإنسان, وللحياة الإنسانية نفسها, وهذا التفكير يرتبط أولا بقيمة أولى وعظمى بالنسبة لهذا الإنسان وهي أول أساس في عقيدته, وهي معرفة سر الكون وخالقه. وكل تفكير في كل ظاهرة طبيعية, أو نفسية يرتبط بهذه القيمة الكبرى حتى تتماسك حبات عقد التفكير الإنساني, وتناسق السمفونية الرائعة للحياة.

وفي أحضان هذا التفكير (الحر), (الصافي) تنمو قوى الإبداع, والاكتشاف الإنساني لأسرار الكون, والحياة, فتنمو الحياة, وتتقدم في ظل هذا الإطار الفكري الإسلامي المعجز. كما تنمو المعاني الحقيقية لحرية الإنسان الموجهة لتقدمه, وتقدم أمته. وهي تلك الحرية الأخلاقية التي تنطلق, وتسمو في إطار قيم هذا الدين الحنيف.

وترتبط (قيمة الوقت) بقيم الإسلام, كما يربطها بالحياة, بل يعتبرها الحياة نفسها.

إن الوقت بالمفهوم الإسلامي هو حياة الإنسان وحياة أمته على هذه الدنيا فمن أضاع وقته فقد أضاع حياته, وحياة أمته.

ومن أفتقد أو فقد معنى الوقت, وارتباطه بهذه (القيم) العليا في الحياة عاش حياة غير محسوبة, فلا يكون بمقدوره أن يستثمر وقته, ووقت أمته في إنجاز الأدوار المختلفة التي عليه عملها في الحياة فلا تتقدم الحياة, ولا يكون في استطاعته أن يجد حلا لوقت يفيض عليه بعد عمله الذي يؤدي من خلاله أدواراً اجتماعية محددة له, فيضيع وقته سدى.

وبالإسلام أغنى ما عرفته البشرية من فكر خاص بمبادئ الحرية, والإخاء, والمساواة, والعدالة الاجتماعية. وهذه المبادئ لم توضع بشكل مجرد؛ وإنما مستوحاة من الحياة الاجتماعية للبشر في كل عصر وعصر. ومن ثم فإن المسلم إذا ما ارتبط بها, فإنما يرتبط بنموذج واضح المعالم لمجتمع مسلم تتحقق فيه هذه المبادئ.

وهذه المبادئ ثرية بالقيم ثراء لا حدود له, كما أنها تجسدت في نماذج من البشر, ومن النظم الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية. وبالتالي يمكن أن يصاغ منها أهداف التربية, وأن تصاغ من قصصها, ومن قيمها ومن مفهوماتها كثيراً من محتويات المناهج الدراسية المختلفة في التاريخ, واللغة, والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية بوجه عام.

إن الإسلام ملئ بمفاهيم علمية. ومفاهيم عن العلم, ومفاهيم عن أهمية العلم ومنزلته عند الله, وفي الحياة, وعن مغزاه في التعرف على أسرار الكون, وعن عظمته في اكتشاف أسرار الوجود, والخالق. كما أن به قيما علمية تؤكد أهمية البحث عن الحقيقة بأسلوب موضوعي يتسم بالصدق

والأمانة, والمثابرة, ونشدان التطبيق العلمي في واقع الحياة لنفع الإنسان. فلم يثبت حتى الآن تعارض حقيقي من الإسلام, ولا مفهوماً من مفهوماته مع حقائق العلم, ومفاهيمه. بل إن هناك صدقاً علمياً لكل ما ذكره الإسلام في قرآنه. وأحاديث نبيه, كما أن الإسلام يحث على البحث, وتعظيم منزلة العلماء, والباحثين, ويجعل مرتبتهم أسمى المراتب.

والإسلام ملئ بقيم عن (البدن) و(الصحة) والمحافظة عليهما. والاستمتاع بنعيم الدنيا وزينتها ابتداء من جمال الطبيعة, واستمراراً بما فيها من ألذ الطعام والشراب, وأبدع الملابس (قل من حرم زينة الله)...

والإسلام ملئ بقيم اقتصادية عن المال ووظيفته الاجتماعية, وأهميته في تعمير الأرض, وأهميته القيم التي ترتبط به, سواء في الإنتاج أو في التوزيع أو في الاستهلاك, أو في البذل والعطاء, والإيثار, والزكاة, والصدقة, ومحبة الآخرين, والشعور بهم.

وفي الإسلام قيم اجتماعية ترتبط بفكرة الإنسان عن الجماعة. وعن نفسه ومكانته في هذه الجماعة, وما يرتبط بذلك عن بناء لهذه المكانة باسلوب ومبادئ إسلامية يحظى بتقدير الجماعة عن طريقها ويكون لنفسه مكانه بها. ويرتبط بذلك مفاهيم عن الضبط الذاتي, والتربية الذاتية للإنسان ولخلقه ولنموه العقلي, ولنموه الاجتماعي في إطار القيم الإسلامية حتى تتأكد هذه المكانة في جماعته, بل يسعى لتوسيع هذه المكانة ويتحفز لنيل مكانة تاريخية يظل بها خالداً في دنياه, ومكرماً في أخراه.

بل إن في الإسلام أهدافاً, ومناهج, وأساليب تربوية لإعداد العلم وممارسته لعمله, وأساليب للتربية والتعليم, وقيم للعلم وللتعلم.

ولقد كان رسول الإسلام ـ كما نعلم ـ خير معلم, وخير قدوة. فقد حمل قيم الإسلام ومفاهيمه واتجاهاته ومهاراته, ودعا إليها. فظهر لنا في صورة المعلم الذي يعلم في كل أمور الحياة السياسية, والاقتصادية, والاجتماعية. والأخلاقية, والعسكرية, كما علم الصغار والكبار, والرجال والنساء, وعلم في الحرب, وفي السلم, وللدين وللدنيا: للدين كل ما يشمله الدين من عقائد. وعبادات, وحكم

ومواعظ, وحساب, وثواب وعقاب وغيب, وللدنيا بكل ما تتطلبه الدنيا من معالجات سياسية, واقتصادية, واجتماعية, وحربية, وأخلاقية.

ولم يكن الرسول مربياً نظرياً يطرح مفاهيم مجردة, وقيما مثالية لا تتحقق في الواقع, وإنما كانت حياته مصداقاً لمفاهيم الإسلام وقيمة, وبذلك ارتبط النظر بالعمل, والعلم بالتطبيق.

ولذلك نجد في حياته وفي تربيته للجيل الأول من المسلمين كثيراً يفيد في بناء مفاهيم العلم, وفي بناء المجتمع الإسلامي. فلقد وجد في هذا الجيل نماذج خالدة على مدى الزمن تشير إلى المرتقيات العليا التي صعدها هؤلاء المسلمين الأوائل. وهي تلك المرتقيات التي يتطلع إليها كل من فهم الإسلام فهماً حقيقياً.

فما مغزى كل ذلك تربوياً؟. لمجتمع معاصر يستهدف معانقة العصر في ظل مفاهيم الإسلام, وفكرة؟ ما موقف الفكر التربوي من هذه المعاني, والمفاهيم, والمضامين التربوية؟.

ماذا يفيد ذلك في صياغة الأهداف التربوية للمجتمع الإسلامي المنشود؟. وماذا يفيد ذلك في بناء محتوى المناهج الدراسية فيه؟. وماذا يفيد ذلك في بناء أسس الطريقة والوسيلة في التعليم؟. وفي بناء مفاهيم العلم وإعداده؟.

هذه أسئلة على الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر أن تجد لها إجابات إذا أرادت أن تصيغ حياتها بحيث تتغير, وتتقدم في إطار الفكر الإسلامي.

كما أن هذه أسئلة على التربويين ـ كل في تخصصه أن يجد إجابه لها والتأكيد هنا على التربويون ـ كل في تخصصه ـ لأن الإسلام, ومفاهيمه التي يستبطنها, ومبادئه التي يؤسس عليها, وقيمه التي تشكل أخلاقياته, وسلوك معتنقيه ليست مقصورة على مادة بعينها يمكن أن نطلق عليها (مادة الدين) أو مادة التربية الإسلامية, وإنما الإسلام أكثر من هذا شمولا حيث يفرض على التخصصات العلمية والأدبية المختلفة مطالب تتحقق بها مبادئه, مفاهيمه وأخلاقياته, وتشريعاته, وكل ما يحتويه. فالعلوم الطبيعية والاجتماعية يمكن أن توجه, وأن تتحدد كثيراً من مفاهيمها في ظل الإطار العام للفكر الإسلامي.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أن دراسة الخلق والنشوء, والارتقاء ينبغي أن تعالج في إطار الفكر الإسلامي. كما أن الكواكب والأجرام المختلفة يمكن معالجتها ودراستها في نطاق هذا الإطار. كما أن العلوم الاجتماعية كلها يمكن لها أن تجد مادة خصبة, ومصدراً لا ينضب في الفكر الإسلامي. كما أن الأخلاق لا يمكن لها أن تجد أغنى من قيم الإسلام ومثله. كما أن التاريخ ومساره, وعظاته يمكنه أن يجد من القصص القرآني مصدراً خصباً للدراسة: مادة, ومنهجاً, وهدفاً, كما أن اللغة العربية بآدابها وفنونها, وقواعدها, وبلاغتها, ونحوها, وصرفها, لا تجد أبدع من القرآن ومن الحديث, ومن التراث الإسلامي مورداً, ومنهلا.

ـ فإذا ما حاول التربويون فسوف يجدون وضوحاً فكرياً في صياغتهم للأهداف التربوية لمراحل التعليم المختلفة والتخصصات العلمية المختلفة مشتقة من الأهداف الإسلامية.

ـ وسيجدون مادة خصبة لبناء مناهج التعليم المختلفة.

ـ وسيجدون موجهات قوية لبناء أسس الطريقة والوسيلة في التعليم, وفي أعداد المعلم.

(وقد أشرنا إلى أمثلة للقيم, والمفاهيم, والمهارات, والاتجاهات التربوية التي تبرز واضحة في الفكر الإسلامي والتي يمكن للمناهج والوسائل والأهداف التربوية أن نستنبطها وتسعى إلى تحقيقها).

وسيجدون في رسول الإسلام, وفي حياته أغنى منهج لإعداد المعلم, فقد كان معلماً كاملا متكاملا **"أدبه ربه فأحسن تأديبه"**. وسيجدون في حياته خير بناء لمجتمع ظهر على وجه البسيطة على نحو ما أشرنا.

ولما كانت أهداف البحث الذي بين أيدينا أن يطرح أسئلة وأن يضع معالم في الطريق للفكر التربوي الإسلامي فإن الباحث يأمل أن يعالج بعض هذه المعالم بالتفصيل في أبحاث مقبلة بإذن الله, كما يأمر أن يسهم الباحثون في ارتياد هذا الميدان الخصب.

التربية والنظام الديني في المجتمع

الدين نظام اجتماعي

الدين والأيديولوجية الاجتماعية

الدين في نظر علماء الاجتماع الغربيين

الدين والتربية في المجتمع

أثر شمول الدين الإسلامي وقوة صبغته على الفكر التربوي

البحث الثاني

التربية والنظام الديني في المجتمع

مقدمة

إن هناك عديداً من الدراسات التي تناولت تحليل الدين كظاهرة اجتماعية, وكنظام اجتماعي لا يخلو منها ومنه أي مجتمع من المجتمعات١[١]. كما أبرزت هذه الدراسات علاقة الدين بالنظم الاجتماعية المختلفة في المجتمع, وعلاقة الدين بالنظام التربوي كأحد هذه النظم الاجتماعية.

والدراسة التي بين أيدينا هي تحليل للعلاقة بين الدين والتربية كنظامين اجتماعيين.

ولذلك فهي تتساءل عند تلك العلاقة التأثيرية بين كل منهما؟. كما تتساءل عن بنية الدين كنظام اجتماعي, ودور التربية في تشكيل هذه للبنية؟. كما تتساءل عن دور الدين في بناء عناصر التربية من أهداف, ومناهج, وطرائق... الخ.

إن هذا البحث يتناول ببساطة تحليل هذه القضايا وإبداء وجهة نظر بصددها.

الدين نظام اجتماعي:

١[1] DAUID PROENCE ZOCIOLgy. APPLTOh NEW YORK SELOND EDITION.

إن الدين نظام اجتماعي, وجد بوجود المجتمع البشري. وهو إجابة لأسئلة ولحاجات نفسية ألحت على الإنسان منذ وجوده. وسواء أخطأ الإنسان في إجابته عن هذه الأسئلة, أو أصاب فقد كان يجد في هذه الإجابة إشباعاً لحب الاستطلاع عنده, وطمأنينة يواصل بها حياته. وحينما كان يكتشف خطأ الإجابة فإن عقله يحار, ويزول الاطمئنان عن نفسه. وسرعان ما كان يبحث عن إجابة أخرى لأسئلة ترضى عقله, ومنطقه, وتطمئن نفسه.

وكانت الرسالات السماوية في كل فترات التاريخ الإنساني تصويباً لمسار الفكر الديني, والإنساني, والاجتماعي, وتصحيحاً للسلوك البشري في جميع مناحي الحياة, وارساء لمبادئ تربوية عليها المجتمعات, وتنشأ عليها الأجيال.

وفي كل حالة من الحالات سواء تلك الحالات التي أنشأ الإنسان فيها إجابته وطقوسه الدينية لنفسه بعثها رب السماوات والأرض له كان يدين بهذه المعتقدات, ويلتزم بالطقوس الدينية أغلب الناس في المجتمع, وإن شئت القول الأصح كل المجتمع. فلم يكن يخرج عن الاجماع الديني إلا الشاردون؛ تماماً كما يخرج المجرمون على القوانين التي يرتضيها المجتمع. وذلك لسبب بسيط هو أن الدين كان يتجسد في كل مظاهر الحياة وأنماطها من عادات وعرف وتقاليد ونظم.

ولكن الناس بطبيعة الحال يختلفون, ويتفاوتون, في المرتقيات التي يرتقونها من دينهم. فمنهم من يرتقى أعلى مرتقى, ومنهم من يرضى بأدنى الدرجات من السلم التعبدي, والديني, ومنهم الوسط. حتى إن عض الناس الذين يجعلون الدين كل شئ في حياتهم, ينقطعون له, ويتفقهون فيه. وينصبون أنفسهم, وينصبهم القوم حراساً له, ودعاة لفكره, وناشرين لمبادئه, ويطلقون عليهم رجال الدين. وبعض الناس يجعلون الناس يجعلون الدين على هامش حياتهم. فلا يستجيبون لأوامره ونواعيه إلا بالقدر الذي يضغط به الضواغط الاجتماعية عليهم, وإن استطاعوا فكاكا, أو فراراً منه فعلوا ذلك خاصة بينهم وبين أنفسهم.

وللدين فكره, وقيمه, وعاداته, وطقوسه, وسلوكه, ومهاراته. كما للدين مبادؤه التربوية التي ينشئ عليها المجتمع, ويربى أجياله المختلفة عليها.

وله مؤسساته الدينية: التعبدية, والتربوية. فالتعبدية يقام فيها الطقوس الدينية الخاصة بهذا الدين, والتربوية التي يتدرب فيها أهل كل دين على فهم أفكاره واستيعاب مفاهيمه, وقيمه, وعاداته, وطقوسه.

إذن فالدين له بنيته مثل بنى النظم الاجتماعية, فله هدف أشرنا إليه فيما سبق من تحليل وفيه العنصر البشري ضروري لوجوده حيث يقوم رجال الدين بالتخصص فيه والتوعية به لدى جميع الناس, وفيه العنصر المادي حيث إن له معابده, وأماكن تلقينه, وله قيمه. وعاداته, وأخلاقياته, وإدارته.

وإذا كان الدين موجوداً في كل المجتمعات القديمة والمعاصرة, وله بنيته مثل جميع النظم الاجتماعية الأخرى, فإن له, وفيه جميع خصائص النظم الاجتماعية الأخرى. فهو يتشابك ويتداخل مع جميع بنى النظم الاجتماعية الأخرى,ويؤثر فيها, ويتأثر بها, ويأخذ منها ويعطيها. وهو يتخصص في وظيفة, ويحقق هدفاً بالنسبة للمجتمع ككل.

والنظام الديني جزء من نظام كلي هو المجتمع. وهو يتكون بدوره من عدة نظم: منها الفكر الديني, والكتاب أو الكتب التي تحوي هذا الفكر وأهدافه ومناهجه ونظامه وتنظيمه.

وللدين علومه الكثيرة. ولقد دفع العلماء لدراسته جاذبية, ووجوده في جميع المجتمعات وتأصله في البشر كعاطفة فطرية في كل إنسان٢[٢].

ولقد عكف على معرفة علومه وأسراره رجال الدين لأنهم قادته. كما عكف على دراسته علماء مقارنة الأديان, وعلماء الأجناس, وعلماء الاجتماع.

٢[2] David propence , Sociolgy, Appletob, New York, Second Edition.

ونحن التربويين نحاول أن تستكشف ـ أيضاً ـ بعض العلاقات بين الدين والتربية على اعتبار أن الدين كثيراً ما يشكل ويصبغ عناصر ثقافة المجتمع. ولما كانت التربية تستمد مادتها من ثقافة المجتمع فمن المحتم أن نتعرف على ما يصيغ هذه الثقافة ويشكلها.

التأثير المتبادل بين الدين والتربية كنظامين اجتماعيين:

إن العطاء المتبادل بين التربية والدين يوضح العلاقة بينهما كنظامين اجتماعيين. وهي علاقة تأثير متبادلة. فحيث تأخذ التربية من الدين أهدافاً خلقية وقيمية وروحية لإعداد النشء عليها لنظم المجتمع المختلفة. وحيث تأخذ التربية من الدين كثيراً من محتوى مناهجها, فإن التربية تعطى للدين قوى بشرية على مستويات مختلفة من البشر على النحو التالي:

١ـ في مجال الدراسات الدينية المتخصصة:

ـ فالنظام التربوي يعد القوى البشرية التي تخصص في إبراز معالم الفكر الديني, والتفقه فيه, كما تتخصص في فروعه التخصصية المختلفة.

كما يعطى النظام التربوي للدين قوى بشرية متمثلة لفكره ولقيمه ولمعارفه, ومنتهجة نهجاً حياتياً سلوكياً يتمشى مع هذا الفكر حتى يكونوا دعاة له.

٢ـ في المجال الاجتماعي العام:

ـ ويعطى النظام التربوي للمجتمع ـ كل المجتمع ـ قوى بشرية متدينة, تعرف حقوقها, وواجباتها الدينية, وتنتهج النهج الديني في حياتها.

وأساليب التربية في هذا تتكيف وفقاً لمتطلبات المجتمع من أبنائه فيما يختص بالدين. فمراحل التعليم العام تكون (الشخص المتدين) الذي يفهم دينه, كلما تتكون لديه اتجاهات إيجابية نحو هذا الدين. كما يكون قد أتقن طقوس الدين وسلوكه.

أما المراحل العليا التخصصية في مجال العقيدة فإنها تعطى دراسات أكثر عمقاً, ومفاهيم أكثر شمولا, واتجاهات أكثر رسوخاً...

أما أماكن الإعداد الديني لأجيال المجتمع فلا تقتصر على مراحل التعليم المدرسي وإنما تلعب دور العبادة دوراً هاماً في ذلك. كما تلعب الأندية الثقافية دوراً ما ضمن برامجها المتنوعة, والمتعددة.

والعطاء التربوي فيما يتعلق بالدين لا تختص به مادة دراسية دون غيرها, وإنما يجب أن تتمثل مناهج التعليم كلها قيم الدين, وأهدافه, وسلوكه لكي يتفاعل معها أبناء المجتمع.

هذا العطاء الذي أوردناه في التحليل السابق يفترض أن المجتمع فيه من النظم التربوية المدرسية نظماً مكتملة. على نحو ما نلاحظه في المجتمعات المعاصرة. أما في حالات المجتمعات التي لا يكتمل فيها النظام التربوي المدرسي فإن المجتمع يخصص رجالا منه أو مؤسسات منه لتتعهد أبناء المجتمع في تنشئتهم على الدين الذي يدين به المجتمع.

كما تلعب الأسرة دوراً رئيسياً في غرس مفاهيم الدين, وطقوسه في الأطفال والشباب في كل المجتمعات بجميع أشكالها.

الدين والأيديولجية الاجتماعية:

إن المحلل للمجتمعات يلاحظ أن الدين ـ أي دين ـ أي دين ـ يلعب دوراً ما في حياة المجتمع. فغالباً ما يستطيع المجتمع أن يجد إجابته لكثير من قضاياه في واقع الحياة السياسية والاقتصادية, والأسرية, والترفيهية, والحربية, والقانونية, والتربوية في ضوء الدين على اعتبار أن الدين مجموعة من الأفكار والقيم, والعادات والسلوك, والمهارات, والطقوس التي توجه الحياة.

ولذلك فهو اللون الصابغ لأيدلوجية المجتمع وإلا حدثت انفصالية في المجتمع وتمزق, وانحراف, وانحلال.

وهذه الصيغة لا تقتصر على مجال الفكر الاجتماعي للمجتمع, وإنما تمتد لتصبغ عناصر النظم الاجتماعية كلها. فهي تصبغ أهداف كل نظام اجتماعي, وقيمه, وأعرافه, وإدارته, ووسائله, أساليبه, وطقوس ومهارات القوى البشرية التي تقوم بأعباء هذا, أو ذاك من النظم الاجتماعية.

ولذلك فإن قيم كل نظام اجتماعي هي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مستمدة من قيم الدين في المجتمع, كما أن عناصر كل نظام اجتماعي تتشكل بشكل ما في ضوء الدين الذي يدين به المجتمع أو هكذا يجب أن يكون.

وخروج النظم الاجتماعية عن هذه القاعدة يؤدي إلى ضعف للتماسك الاجتماعي في المجتمع, وتسيب لأوضاعه, بالضبط كما يحدث في حالة استهتار الناس بالقانون, وبالروادع فيه, فإن ذلك لا يقلل من ضرورة مراعاة الناس للقانون, وإنما يشير إلى التمزق الاجتماعي الذي ينتظر مثل هذا المجتمع.

ومن المسلم به أن كل نظام اجتماعي: سياسياً كان أو اقتصادياً أو دينياً أو اجتماعياً بالمعنى العام لا يساير الطبيعة الحقيقية للإنسان, فإن مآله الحتمي إلى التغير حتى يساير هذه الطبيعة, وإلا لكان مصيره الزوال, وخاصة إذا ما تكلس على نفسه ولم يستطع أن يتجاوب مع الطبيعة الإنسانية, ومع ديناميات الطبيعة الخاصة بالمجتمع. ومن هنا كانت, وما زالت للدين الإسلامي حيوية, وثراء, واستمرارية فاق بها جميع الأشكال والنماذج والنظم الاجتماعية المختلفة. وذلك لبنائه أساساً على فهم عميق للطبيعة البشرية دعائمها, ومطالبها, وأهدافها, ولقيامه أيضاً على فهم عميق لطبيعة الاجتماع البشري.

وعندما مورس الإسلام كإطار للمجتمع, وكصيغة عامة للنظم الاجتماعية فيه, وعندما مارسته البشرية كنظام عام يتجسد بمفاهيمه, بانت فيه هذه الخصائص, وبرزت دينامياته الاجتماعية المعجزة. وهي وأساليبه, وأفكاره في النظم الاجتماعية المختلفة التي تمثل المجتمع, فقد الحركة والفاعلية والإيجابية التي تفتق عنها في كثير من التفرعات, والتقنينات لمختلف النظم الفرعية, والنظم المصغرة في المجتمع.

الدين في نظر علماء الاجتماع الغربيين:

إن دراسات علم الاجتماع الغربي في مجال الدين قد وصلت إلى إن الدين نظام اجتماعي. وإن هناك بالتالي علاقة تأثير متبادل بين الدين والنظم الاجتماعية الأخرى, ولذلك يعتبر الدين ـ في نظر

هذه الدراسات ـ عامل تدعيم رئيسي لصيغة المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تحتضنها هذه النظم الاجتماعية التي يشملها المجتمع. وفي نفس الوقت اعتبر الدين عاملا أساسياً من عوامل تحريك المجتمعات, وتغييرها. فالدين يحمل نظرة للكون وللوجود, وللإنسان. كما يحمل مجموعة مترابطة من القيم الخلقية, والقيم الاجتماعية, فإذا ما سارت النظم الاجتماعية في اتجاهات متناقضة مع هذه المجموعة القيمية فإن رواد المؤسسات الدينية يتلقون أفكاراً, وقيما كثيراً ما تقاس عليها كثير من الأوضاع الاجتماعية. ومن هنا يوجد لدى هؤلاء المواطنين نوعاً ما من النقد للأوضاع القائمة يعتبر في كثير من الأحوال محركاً نحو التغيير٣[٣].

ونحن نرى أن الفكر الديني بما يحوي من قيم اجتماعية, واقتصادية, وأخلاقية إذا ما استوعبها الناشئون, والشباب, والأجيال المختلفة في المجتمع عن طريق التربية المدرسية, واللامدرسية؛ فإن ذلك يعتبر عاملا أساسياً في خلق حركة اجتماعية توجه التغيير الاجتماعي في نطاقها.

وقد يحدث التغيير بتأثير قيم أخرى مخالفة لقيم الدين. ولكن ذلك قد يكون عاملا من عوامل خلق الصراع الثقافي والاجتماعي.

وهذا يفسر كثيراً من الثورات الاجتماعية, وكثيراً من الثورات الدينية التي قامت عبر التاريخ, فلقد لعب الدين في كثير منها دوراً ما في تقوية حركة الصراع أو تقوية حركة التغير الاجتماعي.

ولقوة تأثير الدين في تثبيت الأوضاع, أو في تغييرها فإن كثيراً من القوى الاجتماعية تحاول الإمساك بزمامه. فبعضها يمسك به لتثبيت الأوضاع مثلما فعلت السلطة الكنسية في أوربا في العصور الوسطى, وبعضها يمسك به لتغيير الأوضاع مثل ثورة (مارتن لوثر) في عصر النهضة, ومثل الثورات الإسلامية كالثورة الوهابية, والثورة المهدية, وغيرها.

٣[3] Edit David Propence Sociology , Appleton , New York , Second EDitioh, p. 437.

وكثيراً ما استغل الدين من أجل السيطرة على السلطة في المجتمع, أو لإحداث فتن اجتماعية, أو سياسية, أو دينية. وسهل هذا الاستغلال ما يتمتع به الدين من قوة عاطفية كبيرة لارتباطه بفطرة الإنسان وعاطفته, وبعقله إلى حد كبير. وبالتالي فإن رجال الدين قد يأخذون قوتهم من هذه الطبيعة الخاصة بالدين. وقد يستغلونها, إما في تثبيت الأوضاع أو تغييرها حسب ما يتراءى لهم.

الدين والتربية في المجتمع:

ويعتبر الدين من القوى التربوية الرئيسية في المجتمع. فهو المقنن الأول للقيم, وللمعايير الأخلاقية في المجتمع. ومن هذه الزاوية يعتبر الدين مصدراً هاماً ومورداً رئيسياً للمحتوى التربوي, والأخلاقي الذي تنشئ المجتمعات عليها أبناءها.

ولذلك فإن جانباً هاماً من جوانب الفكر التربوي وركناً أساسياً من أركان الممارسات التربوية يكون مصدرها الدين في المجتمع. فالقيم الأخلاقية والقيم الخاصة بالعمل, والنشاط, والقيم الاجتماعية المرتبطة بالأسرة وبالعلاقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع تصاغ بشكل ما في إطار الدين.

وهذه القيم هي الموجهات الرئيسية التي تستهدى بها التربية في بنائها لمحتويات مناهجها, ووسائلها, وأهدافها.

وإذا كانت التربية تتصف بخاصتين هامتين هما الخاصية الخلقية والخاصية الاجتماعية فإن ارتباطها بالدين يصبح من قبيل الارتباط العضوي الحيوي. ذلك لأن القيم الخلقية أساساً تنبع من الدين, أو الأديان التي يدين بها المجتمع, وأن القيم الخلقية تشكل الصبغة العامة للنظم الاجتماعية كلها.

أثر شمول الدين الإسلامي وقوة صبغته على الفكر التربوي:

إذا كان للدين ـ أي دين ـ مثل هذه الخصائص الفاعلة والمؤثرة في النظم الاجتماعية, فإن للدين الإسلامي ما يجعله على قمة الأديان كلها لما فيه من التأثير, والفعالية, والشمول, والتكامل, والقدرة على صبغ النظم الاجتماعية بصبغته (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة لقوم يعقلون)٤[٤].

فهو دين مكتمل في بنائه, شامل لكل أمور الحياة السياسية, والاقتصادية, والاجتماعية, والقانونية, والحربية, والأمنية, والأسرية, والترويحية.

ولذلك فهو (آيديولوجية) كاملة متكاملة ومن ثم فإن الفكر التربوي يجد فيه معيناً, ومورداً ومصدراً خصباً لبناء منظوماته الفكرية في تناسق وتكامل, وتعاون, ولبناء ممارساته التربوية وخبراته التعليمية, ولبناء وسائلة ومنطلقاته التربوية. ذلك لأن الأيديولوجية الاجتماعية هي النظرية المتكاملة التي يتحدد ضمنها أهداف المجتمع, وقيمة, ومثله العليا, وتطلعاته المستقبلية, وأهداف التربية هي الانعكاس الطبيعي لأهداف المجتمع كما توضحها أيديولوجيته وهي التي تترجم الأهداف إلى أنماط سلوكية في البشر وهم بالتالي القوى التي ستقود وتمارس جميع الأعمال, والأدوار, والعمليات الاجتماعية في المجتمع.

ولذلك فسوف نناقش قضيتين أساسيتين من قضايا التربية بل خاصتين أساسيتين لها وهما خلقية التربية واجتماعيتها لنتبين تلك الصلة القوية بين التربية الخلفية في الإسلام والمجتمع ولنتبين قدرة القيم الإسلامية على صبغ الحياة الاجتماعية كلها.

٤[٤] قرآن كريم.

خلقية التربية في الإسلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أدبني ربي فأحسن تأديبي"**. كما قال الله سبحانه وتعالى في شأن رسول الإسلام: **(وإنك لعلى خلق عظيم)**.

بهذا الحديث الشريف, وبهذا الآية القرآنية الكريمة يتضح أن التربية الخلقية هي مفهوم أساسي من مقومات الإسلام, وتربيته.

والأخلاق الإسلامية ليست أخلاقاً ميتافيزيقية أو يوتوبية, وإنما تتمثل في الضبط النفسي, والاتزان الشخصى. وهي في نفس الوقت جوهر الواقع حيث تستمد حقيقتها منه. فهي لا تنتمي لمعالم المثل الأفلاطوني الذي فصل به أفلاطون الإنسان, عن واقعة الاجتماعي, المادي, وإنما تتسق وتنسجم مع طبيعة الإنسان, وطبيعة المجتمع. بمعنى أنها لا تصطدم مع الفطرة البشرية, ولا الفطرة والتلقائية في الحياة الاجتماعية.

فهي إطار يحدد سلوك الإنسان, وتصرفاته, بحيث تحدث استجابات الشخصية البشرية الأخلاقية في مواقف الحياة الاجتماعية والمادية وفي خبراتها البشرية.

وإذا كانت التربية الحديثة تستهدف نمو للشخصية علمياً, واجتماعياً, ونفسياً, وجسمياً, فإن تلك الأبعاد السلوكية إنما تنمو وفقاً للمفهوم الإسلامي في ظل الإطار الأخلاقي, والقيمي, والروحي في الإسلام.

وهذه الأخلاق, وتلك القيم الخلقية الإسلامية تنبع من أساسين: أساس بشري, وأساس إلهي.

أما الأساس الأول فهو المنطق البشري الذي هو في واقع الأمر ثمرة العقل ونمو الذكاء الإنساني من خلال خبرات الحياة ومعتركها. هو ذلك المنطق الذي يبدع المعايير والموازين الأخلاقية التي تحدد أخلاقية الفعل البشري أو عدم أخلاقيتة. وهذا المنطق البشري أحياناً ما يعجز عن إيضاح تلك المعايير لا لقصور في طبيعته, وإنما لجهل يسيطر عليه, أو لمغالطات تدسها عليه بعض العقول التي تغلب جانب الشر على الخير, وهي تلك العقول التي تجد سعادتها

ـ أحياناً ـ في تلك الرياضة الفكرية التي تستهدف ممارسة السيطرة على الفكر الإنساني ولو بطريق الخطأ والمغالطة. وقد تكون هذه العقول مدركة لمدى خطأ مسلكها الفكرى, ومع ذلك فإنها تجد لنفسها من المبررات ما يجعلها ما يجعلها تصر عليه لأنه هو الموصل الوحيد لغاياتها, ولخداع الجماعة لحسابها, والتاريخ الاجتماعي والفكري للبشرية ملئ بأمثلة لهذه العقول المضللة.

وهنا تبدو أهمية المصدر الثاني: وهو المصدر الإلهي **(يفصل الآيات لقوم يعقلون)**[١]...

وهو المصدر منزه عن (الهوى). وقد وصلنا في الإسلام عن طريق القرآن الكريم, وعن طريق سنة رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم, وقد قال الله في شأن رسوله صلى الله عليه

وسلم فيما يختص بتلك (الموضوعية) الفريدة. **(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى, علمه شديد القوى)**٢[٢].

ولقد جاءت الأخلاق الإلهية واقعية ترسم للفصل البشري الأخلاقي نموذجاً في قدرة الرجل العادي. كما كانت تصحح مسيرة الفعل الأخلاقي في الحياة الجماعية بما يتوافق مع فطرة

الإنسان, وبما لا يصطدم مع الحياة الاجتماعية وبذلك استهدفت الأخلاق الإسلامية بناء الحياة الاجتماعية النظيفة صوب تحقيق الأهداف الاجتماعية في الاستمرار والنمو والتقدم.

كان الناس في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يختلفون, فيهرعون إليه لكي يفتيهم في أمرهم. فإذا استطاع أن يهديه منطقه البشري أفتى, وحل القضية. وإذا لم يستطع انتظر الوحي ليفتيهم في أمرهم. فتنزل الآية لتفصل في الأمر, ولتصدر قرارها في حل القضايا الجدية ..., والقضايا المبهمة ..., والقضايا التي تحتاج إلى تأكيد, والوثوق بالمنطق البشري.

وهنا يظهر مغزى الحديث النبوي الشريف القائل: (إن الحلال بين, والحرام بين, وبينهما أمور متشابهات...).

وتعني كلمة بين أنه واضح, والوضوح إشارة لوضوح المنطق العقلي, وفي هذا ثقة بالمنطق البشري في إدراك أخلاقية الفعل البشري. . . كما أن فيه ما يظهر أهمية المصدر السماوي في إجلاء ما يشتبه على المنطق البشري.

فنحن نأتي الفعل, ونحن ندرك تماماً مدى صوابه, أو خطئه, ولذلك فإننا حينما نأتي فعلا لا أخلاقياً, فإنما نحاول أن نعمله بعيداً عن الجماعة. ولماذا إذن؟. لأن منطق الجماعة هو حصيلة المنطق العقلي ونتاجه وثمرته.

هذه المعايير الأخلاقية الاجتماعية إذن هي معايير عقلية, وهي في نفس الوقت معايير دينية.

ومن هنا كانت استحالة التخلص من المنطق العقلي, وإتيان الفعل الأخلاقي في غيبة منه. ومن هنا أيضاً كانت صعوبة الفعل اللاأخلاقي أمام المجتمع لاشمئزازه منه. ولذلك نرى حدة الرقابة الاجتماعية, وصرامتها.

وهنا أيضاً تجئ عظمة الأخلاق في الإسلام, لأنها تنسجم مع ذلك المنطق العقلي, وتلك المعايير الاجتماعية في نفس الوقت.

ومن هنا أيضاً يجد الإنسان سعادته, وراحته النفسية, وتكامله, واتزانه الشخصي في ذلك الوفاق والانسجام بين العقل ومنطقه والمجتمع وقوانينه ومعايير السلوك فيه من جهة, وبين الدين الإسلامي وأحكامه ومحرماته ومحللاته من جهة أخرى.

إن أحد أهداف التربية الإسلامية الأساسية هي التهذيب الخلقي, والتشذيب الإنساني, والصفاء الداخلي. وكل ذلك يحرك السلوك في إطار من الخلق القويم, والحب الصادق, والإخلاص النفسي, والإخلاص الذي يبلغ درجة الفداء بالنفس في سبيل أن يحيا الآخرون. **(ويؤثرون على**

أنفسهم ولو كان بهم خاصة)[٣], (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً, إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.... إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً. وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً متكئين

فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً, دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها

تذليلاً)٤[٤].

وهذه الآية الأخيرة تربط الفعل الأخلاقي بثواب الله, حباً فيه, وخوفاً من عقابه.

وهكذا نرى أن الأخلاق كغاية من غايات التربية في الإسلام لم تكن أخلاقاً تفصل الفرد عن واقعه الاجتماعي, وارتباطه بظروف الزمان والمكان, بل لم تقطع صلته بماضيه, وتاريخه, وحاضره, ومستقبله, كما لم تكن أخلاقاً هروبية من عالم الواقع الذي يحياه بكل تفاعلاته إلى عالم المثل المنفصل عن هذا الواقع, والذي يشكل متطلبات خرافية يعجز الإنسان عن تحقيقها فيصاب في حقيقة الأمر بانفصام الشخصية بين ما يقوله أمام الناس, وما ينشد تحقيقه وبين ما بعجز عن تحقيقه لأنه معجز للإنسان وفوق طاقته وقدراته وإمكاناته, كما حدث أيام العصور الوسطى حينما فرضت المسيحية أو بأدق تعبير رجال الدين المسيحي على المسيحيين أن يطلقوا الحياة الدنيا فلا يتزوجون, ولا يأكلون إلا ما يقيم الأود, ولا يلبسون إلا الخشن من الملابس, وكان نتيجة ذلك حركة الرهبنة الواسعة الانتشار في ذلك الوقت.

أما الإسلام فقد وفق بين تشريعاته وأخلاقه ومطالب الحياة البشرية والاجتماعية. ويظهر هذا التوفيق والانسجام بين الواقع وتشريعات الإسلام الأخلاقية في ذلك الوفاق بين واقع الطبيعة البشرية البيولوجي, والاجتماعي, والعقلي فيما توصلت إليه المجتمعات جميعها بلا استثناء فيما يختص بنظام الزواج والأسرة وبين ذلك التشريع الإسلامي, بل الديني بوجه عام (أي دين) في تنظيمه للأسرة. وهو ذلك التنظيم الذي يجد الإنسان فيه إشباعاً لطبيعته البيولوجية والاجتماعية والعقلية والنفسية.

كما يبدو وعي الإسلام بهذه الطبيعة البشرية فيما ذكر عن أنه (لا رهبانية في الإسلام) اقتناعاً منه بأن الإنسان لابد أن يعيش في مجتمع, ويستمتع بخيرات الدنيا ويأخذ نصيبه منها. وإيماناً منه بضرورة إشباع جميع مطالب النمو في الإنسان مثل إشباع الدافع الجنسي بطريقة طبيعية مشروعة في نظام زواج ينظم الأسرة, وينظم الأحساب والأنساب, والإنجاب, والأطفال, فيتحقق بهذا النظام الاجتماعي إشباعاً لتلك الدوافع الحيوية, والاجتماعية, والأبوية, وإشباعاً لعواطف الحب, والأبوة, والبنوة, والأرتباط الإنساني والاجتماعي بين الناس.

إن تصور بعض الفلاسفة, وبعض المفكرين, وبعض رجال الدين لعالم مثالي بعيد عن الواقع كان وما يزال مسئولا عن تلك السلبيات الهروبية من عالم الواقع, وهي تلك السلبيات التي سيطرت على بعض الناس, فلم يعيشوا حياتهم, ولم يستطيعوا في نفس الوقت أن يجدوا ضالتهم في ذلك العالم الخيالي. فأصبحوا في كثير من الحالات باضطرابات نفسية عنيفة, وشديدة أبعدتهم عن المنطق البشري السليم, وأفسدت تفكيرهم, وجعلتهم يطلقون كثيراً من النداءات, والآراء الخرافية يحاولون إقناع الناس بأنهم استطاعوا عن طريق تلك الحياة الهروبية التي يعيشونها أن يتوصلوا إليها دون غيرهم. وما على غيرهم إلا أن يصدقوهم, وألا كانوا كفرة وملحدين, وفيهم مس من الشيطان الرجيم.

وكثيراً ما خدع الناس في مثل هؤلاء... فأنزلوهم منزلة الأولياء والصالحين وبنوا وأقاموا لهم

الأضرحة والقباب, وحجوا إليهم يلتمسون منهم البركة وتيسير الأمور!!٥[٥].

ومن عجيب الأمر أن معظم الخرافات التي علقت بالدين الإسلامي على وجه الخصوص كانت انطلاقاً من هذا المفهوم الخرافي, والمثالي في كثير من الحالات, وليس من عجيب الأمر أن كل الحركات الثورية الإسلامية ابتداء من حركة الوهابيين في بلاد العرب, والثورة المهدية في السودان, إلى حركة الشيخ جمال الدين الأفغاني, ومحمد عبده, وحسن البنا, كلها كانت حركات ثورية لتخليص المفاهيم الإسلامية من مثل هذه الخرافات التي نسجت حول هؤلاء الناس, وحول أولياء الله الصالحين, وأبعدت الدين الإسلامي عن جوهره, وعن موضوعية أخلاقية, وواقعيتها, وعن ارتباطها بالدنيا قدر ارتباطها بالآخرة. **(أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . . . وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)**...

والأخلاق الإسلامية لا يكفي المعرفة بها٦[٦]. وإنما الجانب المعرفي فيها لا يكون إلا لمجر

توجيه السلوك الإنساني, وترشيده, وضبطه, وعقلنته بحيث يجد الإنسان لكل فعل أخلاقي أساساً من الاقتناع العقلي. والإجماع البشري, ثم يجد الإنسان نفسه ـ وخاصة في

إطار اجتماعي إسلامي ـ أمام الفعل الذي يجب فعله, والسلوك الذي يجب أن يسلكه؛ وكأنه اختيار إنساني صرف, وإبداع عقلي محض, ووفاق منطقي طبيعي.

وما دامت الأخلاق الإسلامية على وفاق تام مع الواقع, وكأنما هي نتاج محض له: فإن ذلك يعطيها نسبيتها وتغيرها بتغير الواقع. فلأن الواقع متغير فلابد أن تكون هي أيضاً متغيرة متجددة في ظل إطار إلهي ثابت, مع إدراكنا لحقيقة هامة مؤداها أن المنطق الإنساني في حد ذاته غير متذبذب, ولا متناقض. فما هو خير اليوم في الإطار العام, وما هو حق, وما هو جميل لا يمكن أن ينظر إليه هذا المنطق في يوم آخر على أنه باطل, وشر وقبيح في يوم آخر أو في مكان آخر.

والأخلاق الإسلامية يكمن فيها ذلك الوفاق التام بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة لسبب بديهي هو أن الفرد هو العنصر المكون للمجتمع. وإذا حدث من تناقض بينهما؛ فإن ذلك لا يكون إلا نتيجة للفهم الخاطئ لطبيعة كل من الفرد والمجتمع.

ولكن المنفعة هنا ليست بالنفعية المعاصرة التي ظهرت في مذهب المنفعة (لبنتام) أو لغيره من فلاسفة الأخلاق المعاصرين. وإنما المنفعة في الإسلام من أجل مثل عليا ترتبط أكثر ما ترتبط به بالجماعة وصالحها وتقدمها. وبالفرد وصالحه وتقدمه.

فلم يكن العمل الذي حث عليه الإسلام عملا أنانياً, أو عملا ذاتياً فردياً وإنما هو عمل جاد يأخذ صور الاجتهادات المختلفة في الحياة العامة, والحياة السياسية, والحياة الجهادية, والحياة العلمية والحياة الخاصة, ولعل دوافع العمل الإنساني في الإسلام هي التي كانت وراء الاجتهاد العلمي, والنبوغ في شتى مجالات الحياة... في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك, والأحياء, وما توصل إليه المسلمون وما اخترعوه من آلات وأجهزة وأدوات.

وعلى ذلك الأساس لا تكون الوسيلة بأية حال من الأحوال مبررة للغاية, وإنما ترتبط قيمة الوسيلة بمعايير اجتماعية, وعقلية, وفردية, كما أن قيمة الغاية نفسها تحددها هذه المعايير فلا يستهدف الفعل الأخلاقي إلا خير الجماعة, وسعادتها. وفي نفس الوقت يتحقق بشكل طبيعي, وتلقائي خير الفرد ذلك العنصر المكون للمجتمع.

ومن هنا كانت اللذة الفردية ـ في الإسلام ـ في الإيثار, وفي حب الغير, وفي العمل على سعادتهم, وفي نشدان راحتهم, وفي الموت في سبيل أن تحيى الجماعة, وأن تستمر قيمها وأخلاقياتها ومن هنا أيضاً قويت أطر والحدة والتماسك بين الجماعة. ومن هنا كذلك ارتفعت قيم الفضيلة في إطار تلك الجماعة بشكل واقعي ملموس.

ولقد قوى الدوافع والشعور الوطني, وارتبط بهذه القيم الأخلاقية فداء للغير ودفاعاً عن تلك القيم.

ولم يكن هذا الدافع أو الشعور الوطني قاصراً أو محدوداً بحدود المكان, وإنما كان مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية. وارتباطه بهذه العقيدة هو الذي جعل المسلم يحارب من أجلها أينما وجدت وعلى أية أرض استقرت, ومن هنا أيضاً كان ارتباط المسلم بأرض المسلمين جمعاً لأنها أرض استقرت عليها هذه القيم التي لا يريد لها المسلم انحساراً, وإنما يريد لها امتداداً على طول الكون وعرضه,فمفهوم الوطنية والقومية في الإسلام هو مفهوم الأمة التي ترعى هذه القيم, وتتبناها أن بعد غرستها, ونمتها, وجسدتها في الواقع الاجتماعي.

والتربية الإسلامية من هذه الزاوية الخلقية التي تتكامل فيها المعرفة والفعل ليست ـ كما قلنا ـ ضرباً مجرداً مثالياً بعيداً عن الواقع, ومن ثم فلابد لها من أ، تجد طريقها في جوهر الشخصية الإنسانية, وفي تصرفاتها.

وهي لذلك تكون أفعالا معقلنة بفكر, ومستندة بحيثيات, ومن هنا كان رسول الإسلام صلى الله علية وسلم تتجسد فيه هذه الأخلاق قولا وفعلا, فلم يذكر لنا التاريخ واقعة واحدة تبرز تناقضاً بين ما قال وما فعل. وإنما كانت المعرفة عنده مرتبطة بالسلوك. وكانت الفضيلة لديه تكمن في

ذلك الوفاق التام بين السلوك والمعرفة. وهيهات للتربية الحديثة في أي مكان من العالم المعاصر أن تحقق مثل هذا الوفاق التام بين الأصول الفكرية للأخلاق والنماذج السلوكية لها.

اجتماعية التربية في الإسلام:

عرضنا للأخلاق في الإسلام, وعرفنا كثيراً عنها. وهي قد رفعت الإسلام إلى المكانة التي تجعله منهج حياة. فهو منهج إلهي لحياة البشر في المجتمع. يشق طريقه في حياتهم ليشبع مطالبهم في التدين الفطري فيهم, وليجيب عن كل الأسئلة التي شغلت بالهم منذ وجدوا على ظهر الأرض: من أين أتينا وإلى أين المصير؟. ماذا بعد الموت؟. ماذا قبل الحياة؟. وماذا بعدها؟. ما هي المعايير الأنسب للحياة, ولتنظيمها؟. هذه المجموعة من الأسئلة طرحها الإنسان ضمن مجموعة كبيرة أخرى من الأسئلة, وكان النظام الديني هو الإجابة التلقائية الطبيعية على هذه الأسئلة.

ولقد كان يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة بعض من البشر, وكانت الإجابة في بعضها صواباً, وفي بعضها الآخر خطأ. وجاءت حكمة الرسالات الإلهية للبشر لكي تؤكد الصواب, وتصحح الخطأ. وجاء الإسلام خاتم هذه الرسالات الإلهية كلها. وقد نزل لكل زمان ولكل مكان. وبذلك صيغت أحكامه ونصوصه لتستوعب كل تغيرات وتطورات يمكن أن تحدث في مجال المستقبل الإنساني.

وهو في تشريعه وأحكامه إنما يراعي حدود القدرات البشرية وحدود الواقع المادي للحياة البشرية في كل مجتمع من المجتمعات كما ذكرنا.

ولذلك فاجتماعية الإسلام من أهم خصائصه. فهو لا يطلب من الناس ما لا يقدرون عليه. ولا حياة اجتماعية تتناقض مع فطرتهم. وإنما هو في الحقيقة تجاوب لمطالب الحياة البشرية. كما أن الهدى الذي يطلبه الإسلام من البشر يريده جهداً بشرياً, يأتيه الناس بمقدرة, وبرضا.

(ونفس وما سواها. فألهما فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها).

واجتماعية التربية إذ تتحقق لها من خلال تمثلها لأهداف المجتمع ولثقافته, وإعدادها لقواة البشرية التي ستتولى أدوار الحياة الاجتماعية المختلفة في نظمه الاجتماعية المتعددة؛ فإنها في تمثلها لثقافة المجتمع, وأهدافه وإعدادها لقواه البشرية إنما تنسج أهدافها ومناهجها وطرائقها في إطار مجموعة من القيم الأخلاقية. وأي قيم أثرى وأغنى وأصلح من القيم الإسلامية؟.

ومن هذا نلاحظ أن الإسلام يمكنه أن يعطى التربية عطاء كبيراً يتحقق لها به خلقيتها وفقاً لقيمة الخلقية, واجتماعيتها وفقاً لقيمه الأجتماعية.

كما أن التربية يمكنها أن تعطى الإسلام عطاء كبيراً في المقابل بما تحققه من بناء لقيمه في أجيال المجتمع. وحينما تتولى هذه الأجيال الأدوار المختلفة في نظم المجتمع فإن تجسيداً واقعياً لهذه القيم سيشق طريقة في عناصر هذه النظم ابتداء بأهداف هذه النظم, واستمراراً بالعنصر المادي, والبشري والتنظيم الإداري والقيم الاجتماعية فيها.

البحث الثالث

بحث الثقافة الإسلامية والتربية

المقدمة

إن الثقافة نتاج بشري تتوصل إليها المجتمعات من خلال تفاعلها مع خبرات الحياة المختلفة. وذلك حينما تدفعها حاجاتها المستمرة إلى الإشباع من أجل البقاء والاستمرار.

وبقاء الكائنات الحية كلها واستمرارها بقاء واستمراراً حيوياً. أما الإنسان فبقاؤه واستمراره إلى جانب أنه حيوي فهو ثقافي بالدرجة الأولى. فهناك ميلاد ثقافي وتلقيح ثقافي, وتزاوج ثقافي وتكاثر ثقافي, وميراث ثقافي, وهضم وتمثل ثقافي. . . إلى آخر العمليات التي يظن البعض أنها حيوية فقط...

فإذا كان الأمر كذلك فما هو موقع (الثقافة الإسلامية الإلهية). في المجتمع وقد قلنا إن الثقافة نتاج بشري صرف؟.

هذا السؤال يبدو في أول الأمر, وكأن إجابته صعبة, ولكن تزول هذه الصعوبة حينما نتذكر أن خالق الإنسان هو الله, وأنه العارف بدوافعه, وحاجاته, كما أنه قد يسره للحياة بكل إمكانات الحياة البشرية من, جسم, وعقل, وروح, وحواس, وبصيرة. بل وبإمكانية توظيفها وتفاعلاتها مع خبرات الحياة الطبيعية والبشرية من حوله. ومن ثم فقد ترك لهذه الإمكانات حرية التفاعل والنمو وفقاً للإرادة الإنسانية. وألهم الإنسان إلى معرفة الصراط المستقيم وغير المستقيم. ومع ذلك ترك له حرية اختيار أحدهما. **(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)**.

وفي نفس الوقت ألهم الإنسان إلى أن الصراط المستقيم هو الأصوب لاستقامة الحياة الاجتماعية, واستمرارها بشكل إيجابي مثمر. وبالفعل استجابت الحياة البشرية في تفاعلاتها مع الحياة بجميع أبعادها الاقتصادية والاجتماعية في كثير من فترات التاريخ إلى هذا الطريق

المستقيم, وارتضت لنفسها قيماً وعرفاً وعادات ونظماً تتفق إلى حد كبير مع ما يرتضيه الخالق لمخلوقه, وفي فترات من التاريخ, وفي بعض المجتمعات, وفي بعض قيمها كانت هناك انحرافات عن هذا الخط أو الصراط المستقيم, ولذلك كانت تتنزل الديانات السماوية بقصد أن تعيد إلى الإنسان استقامته, وأن توجهه إلى الطريق المستقيم, وأن تقنن له إطار الحياة ونماذج الأفعال الأخلاقية لكل تصرفات الإنسان في الحياة.

ومن هنا جاءت الثقافة الإسلامية كخاتمة الثقافات الإلهية لتقنين حياة البشر وفقاً لأنها ليست بعدها رسالات أخرى.

وحثنا في الثقافة الإسلامية والتربية يطرح الأسئلة الآتية:

ـ ما هي المفاهيم الأساسية التي تطرحها هذه الثقافة ولماذا غابت عنا اليوم؟.

ـ ما هي خصائص هذه الثقافة الإسلامية؟.

ـ ماذا تطرحه من أسئلة ومطالب على التربية في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؟.

ما هي المفاهيم الأساسية في الثقافة الإسلامية؟ ولماذا غابت عنا اليوم:

لعل ما تعرض له النشء في (بلادنا) من خلط في المفاهيم الكبرى هو المسؤول عما يعانيه هذا النشء من اختفاء الرؤية الواضحة لقضاياهم الكبرى.

ومن تلك المفاهيم التي تعرضت لخلط كبير مفهوم (الثقافة الإسلامية). ذلك لان محاولات خبيثة قد بذلت بشكل مكثف لإحلال مفاهيم أخرى محلها, وبهذا الإحلال أمكن أ، تزول كثير من المفاهيم الإسلامية المرتبطة بفكرة (الثقافة الإسلامية) كما أمكن أن تحل محلها كثير من المفاهيم المرتبطة بالثقافة العربية بشكل مطلق. وكأن الثقافة العربية بديل للثقافة الإسلامية, والعكس الصحيح. فلقد جاءت الثقافة الإسلامية مع الإسلام لتحل محل الثقافة العربية التي وجدت قبله.

إن الإسلام رسالة عالمية للناس كافة, ومن ثم فإن الثقافة الإسلامية جاءت لتؤكد مفاهيم عالمية, ولتقضى على جميع المفاهيم الإقليمية, والعرفية, والجنسية. ولذلك فقد حرص الإسلام على بناء (أمة إسلامية) تحمل الرسالة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية. وتنشرها على العالم كله, وتجمع العالم كله عليها. **(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)**.

إن قوام الإسلام هو إزالة جميع الفوارق بين البشر المتأصلة بينهم بسبب الجنس, أو اللغة, أو اللون, أو الانتماء القومي.

والسؤال الآن: هل لهذه المفاهيم ومثيلاتها أن تظهر من جديد بعد ما بذلت جهود كثيرة على مستوى العالم والاستعمار لمحاربتها؟.. وهل نستسلم لمثل هذه الحروب الشرسة, المستمرة لمفاهيم الإسلام أم أن علينا ـ نحن المفكرين ـ أن نبرز هذه المفاهيم, وما يرتبط بها, وأن نقدمها للناشئين والشباب.

كما نتساءل: لماذا امتصصنا هذه الثقافة امتصاصاً كاملا, ولم يحث طيلة أربعة عشر قرناً أية بدايات لرفضها؟. أو حتى مجرد التفكير في هذا الرفض الثقافي؟ ولماذا تمثلناها بحب ورضا وإقبال؟ ولماذا نتعصب حتى اليوم, بل في المستقبل القريب والبعيد لها؟. ولماذا يتغنى بها شعراؤنا ومفكرونا وفلاسفتنا؟. ولماذا هي عميقة الجذور فينا, ثابتة الأركان, رابطة الجأش, عزيزة علينا؟. لماذا لا تعتبر ثقافة دخيلة؟. ولماذا رفضنا غيرها من الثقافات, واعتبرناها ثقافات غازية؟. وحتى الثقافات التي حملت قيماً إيجابية, واجتهادات بشرية إبداعية حاولنا أن نستفيد من إيجابياتها ورفضنا هذه الثقافات الغازية إطاراً لحياتنا مع أننا حاولنا تمثل القيم الإيجابية فيها في إطار الثقافة الإسلامية, وحينما ضبب بعض المغرضين إطارنا الثقافي الإسلامي, وحاولوا تشويهه, وتصويره بالقزمية تهنا في غياهب, وعتامة ثقافية, وأحسسنا بأننا نفقد شيئاً غالياً علينا... ما هو؟. لم تكن ندرى بالضبط. ولكننا لم نأل جهداً في البحث عنه, وكنا باستمرار نحس أنه في الثقافة الإسلامية.

إن الإجابة عن كل التساؤلات السابقة تكمن ببساطة في أن تلك الثقافة الإسلامية جاءت إلينا تحمل فكراً عقلانياً, وشحنة عاطفية ترتبط بأعماق الشخصية الإنسانية, وتجيب عن جميع الأسئلة التي حيرت البشرية منذ نشأة الإنسان, والتي حاول الفلاسفة والمفكرون الإجابة عنها مجتهدين وجادين في أعمال العقل والفكر. كما أجاب عنها الرسل الأنبياء المرسلين من السماء إجابة قائمة على مخاطبة الشعور والأعماق الإنسانية. وجاءت الرسالة السماوية الإسلامية أخيراً لتكون أكمل الرسالات, وأتم الإجابات ولتضع الصورة كاملة متكاملة في إطار عام يجيب عن كل تساؤلات البشر في حياتهم, وفي علاقاتهم بالوجود وبالطبيعة وبالمصير بعد الحياة.

إن هذه (الثقافة الإسلامية) هي تلك الصورة المتكاملة وذلك الكل المتكامل من التساؤلات والإجابات عن كل ما يشغل بال البشرية بالنسبة للطبيعة البشرية أصلا, وطبيعة, ومصيراً. وبالنسبة للكون وللوجود كله أصلا, وطبيعة, ومصيراً. وبالنسبة لمشكلات الإنسان الحياتية ابتداء من ميلاده, واستمراراً بطفولته وشبابه ويفاعته, وشيخوخته, وذلك على عرض حياته الاجتماعية في كل أشكالها وتنظيماتها ونظمها. بحيث يجد المتوافق مع ذلك الكل الثقافي المتكامل فرداً أو جماعة توافقاً واتزاناً في شخصيته الجماعية والفردية.

إن هذه الصورة المتكاملة (الثقافة الإسلامية) تتكامل فيها شروط النظرية على المستوى النظري. فهي مجموعة من الأفكار المتسلسلة المترابطة المنسجمة التي لا تتناقض مع بعضها. كما أنها تشكل إطاراً عاماً شاملا لكل شؤون الحياة. كما يتكامل فيها الأساسيان النظري والتطبيقي للحياة. فهذا الإطار النظري الشامل يوجه الحياة الواقعية والتطبيقات المختلفة في جميع مجالات الحياة التي تشملها النظم المختلفة في المجتمع, من سياسية, واقتصادية, وأسرية, وأمنية, وترويحية, وتربوية, وإدارية... الخ.

وحينما تلاقى الأساس الفكري مع الواقع التطبيقي في الحياة الاجتماعية بجميع نظمها في بداية ظهور الإسلام, وما تلاه من قرون ظهرت كل أبعاد الصورة الثقافية الإسلامية فكراً

وتطبيقاً بشكل مجسد, ولقد ترك لنا هذا التطبيق تراثاً ثقافياً ضخماً على المستوى الفكري وعلى المستوى التطبيقي.

ولعل ذلك هو السر في إقتناعنا بتلك الثقافة الإسلامية منذ جاءت إلينا في إطار ومضمون إسلامي. ولم تكن أبداً ثقافة عربية جاهلية... فكل المعايير, والقيم, والقوانين السلوكية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية وأنماط السلوك والعادات, وحوافز العمل, وأخلاقياته, ونماذجه ونتائجه المادية كانت بمحتوى إسلامي وضمن ذلك الإطار الإسلامي المتكامل المنسجم المتسق.

وإذا ما أثرنا تساؤلا ـ في هذا المكان ـ سبق لنا أن طرحناه في بداية هذا البحث لوجد في هذا الموقع معناه ومغزاه والإجابة عنه بيسر وبسهولة هذا السؤال هو:

كيف ارتبطنا بالعروبة؟. ومتى؟. ولماذا؟. وفي أي إطار. وفي كنف ماذا؟. وباختصار الإجابة عن هذه التساؤلات كلها بالقول بأننا قد ارتبطنا بها في إطار الإسلام ونظرياته, وحلوله لمشكلاتنا, وإجابته عن تساؤلاتنا الفكرية والاجتماعية, وموقفه من قضايانا الحياتية كلها.

وأي تصور للعروبة غير هذا, وأي ارتباط بأية قومية لا تبرز موقفنا وموقعنا من هذا الإطار الإسلامي يبعدنا حقيقة عن جوهر الحقيقة التاريخ. بل يغالط منطق الحوادث في التاريخ وفي الحاضر وفي المستقبل.

وهنا تثار قضية حول بناء (الوحدة العربية) وأسسها مؤداها: هل يمكن أن تقام الوحدة العربية على أسس مثل تلك التي قامت عليها بعض القوميات الأوربية مثل القومية الألمانية (الوحدة الألمانية), والقومية الإيطالية (الوحدة الإيطالية) مثلا؟. بالقطع لا. لأن الوحدة العربية لم تبدأ نفس البداية, ولم تؤسس على نفس الأسس التي أسست عليها كل من الوحدتين الألمانية الإيطالية, وإنما أسست تأسيساً مختلفاً للغاية, فقد ارتبطت الوحدة العربية ارتباطاً أساسياً بالدين الإسلامي, لذلك يعتبر الدين الإسلامي أهم أسسها على الإطلاق, هو أساس متوافق مع

الديانات السماوية كلها. كما أنه قد أوجد الحلول للتعايش السلمي في نطاقه بين البشر جميعاً. (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

هي وحدة ليست مغلقة الحدود مثل أية قومية أخرى, وإنما هي وحدة مفتوحة الحدود لكي تضم إليها كل من يريدها ويرغب فيها خاصة من شقيقاتها, الإسلاميات. وهي وحدة لا تقوم على وحدة الجنس أو العنصر إطلاقاً فإن ثقافتها هي الثقافة الإسلامية التي جاءت لتحطم فكرة الجنس والعنصر.

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1]١ فمعيار التفاضل والتمايز من عند الله. كما أن معيار التقوى والخير الذي يقدمه الشعب للبشرية. **(الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)**٢[2].

(كلكم لآدم, وآدم من تراب). وفي الحديث الأخير محو تام لفكرة التفاضل الجنسي والعرقي.

وإذا كان الإسلام قد ميز (الأمة الإسلامية) على غيرها فإن ذلك التمييز لم يمنح لها إلا للمنهج الذي تتبعه والثقافة التي يتجسد فيها هذا المنهج, **(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)**٣[3].

ومن هنا يظهر وجه اختلاف آخر بينها وبين القوميات الأخرى أو الأمم الأخرى. ومن هنا يبدو لنا مدى خطئنا في قصرها على بعض البلاد الإسلامية دون الأخرى. ومثالا لذلك

---

١ [1] قرآن كريم.

٢ [2] حديث شريف.

٣ [3] قرآن كريم.

الرفض الذي تبنيناه إزاء بعض الشقيقات الإسلاميات مثل مورتانيا والصومال في وقت ما, وهما اللتان ألحتا على هذا الانتماء, بل على دخول الجامعة العربية لأنها في فهمهم هي نواة الوحدة الحقيقية للأمة الإسلامية).

ولعل هذه المعاني التي نتولى إيضاحها وإبرازها هي معان في أعماقنا جميعاً, وإن خيم عليها الضباب الفكري إلى حد ما. وهي في أعماق, وإفهام, وعلى لسان المغرب العربي كله. (فالقومية العربية) أو (الوحدة العربية) لا تفهم إلا في ظل التفسير الإسلامي, وفي ظل هذا الإطار الإسلامي وتلك الصورة الإسلامية. بمعنى أن الوحدة العربية عندهم مرادفة لوحدة (الأمة الإسلامية). وأن الثقافة العربية تعنى بالدرجة الأولى (الثقافة الإسلامية), وإلا لرفضها كثير من إخواننا في المغرب العربي الذين ينتمون إلى أصل بربري ولا ينتمون إلى أصول عربية بالمعنى الإتنولوجي.

كما أن الوحدة إذا فهمت بهذا المعنى الشامل والواسع لما أحس الأكراد في العراق مثلا بذلك الكابوس الذي يخيم عليه لفهمها ضيقاً مخلا بأبعادها وملامحها وخصائصها الأصيلة, ولما قاومها إخواننا الاتراك والإيرانيون, واعتبروها قومية عراقية مناوئة. فكان ردهم الطبيعي عليها تغريب تركيا لا تعريبها, وإحياء ما يسمى بالمعنى القومي (القومية التركية) بعدما ذابت إلى حد كبير في مفهوم الأمة الإسلامية, وكان رد الإيرانيين عليها إحياء النعرات الفارسية القديمة والاتجاهات الإقليمية الضيقة بعدها ذابت في العصور الإسلامية في مفهوم الأمة الإسلامية, وكان رد فعل كثير من مفكرينا في مصر ولو من تحت ستار عليها بمحاولة إحياء النعرة الفرعونية, وإحياء النعرات الإقليمية الضيقة.

وهكذا فقد تسبب ضياع هذه المعاني والأصول والملامح والخصائص المتميزة والمميزة (للأمة الإسلامية), و (للثقافة الإسلامية) في تعميق الشعور القومي القديم عند بعض الدول الإسلامية مثلما حدث ببنجلاديش التي جعلت لذلك الشعور القومي القديم مكانة أولى على مكانة الانتماء الإسلامي الذي كان يربطها برباط (الوحدة الإسلامية), الذي كان يصل إلى داخل حدودنا دون وحدة سياسية. فلما انقطع هذا الرباط بيننا وبينهم انقطع بينهم هم أيضاً.

إن الوحدة الإسلامية لها أبعاد حساسة, ودقيقة, وعميقة بعمق جوهرها, وإدراكها بوعي وبصيرة, وبفكر مفتوح يجنب الأمة كثيراً من مشكلاتها وعثراتها ويزيل عنا كثيراً من تناقضاتها وصعوباتها. ويخلي بينها وبين كثير من ضعفها وبطئها, ويجنبها كثيراً من المزيد في الوهن والضعف.

إن الوحدة الإسلامية استنتاجاً من هذا التحليل تعتبر وحدة عالمية ووحدة لا جنسية. ووحدة إنسانية لا تفرق بين البشر لسبب الجنس أو اللغة, أو حتى الدين الذي هو العنصر الرئيسي فيها. ففي ظلها عاشت الديانات السماوية كلها . وكان للذمي ما للمسلم تماما بتمام (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وفي ظلها تحققت قيم ومثل إنسانية ظلت البشرية تكافح من اجلها آلاف السنين, ولم تتحقق بصورة عميقة,ومتكاملة إلا في ظلها. وبضعفها اختفت هذه المثل الواقعية التي أعطت للإنسان كرامته وحريته وأطلقت لإمكانياته وذكائه العنان.

وتعتبر الوحدة غير متناقضة معها. وإنما هي أساس تنطلق منه هذه الأمة الإسلامية في بناء مفاهيمها وأسسها التي وضعها لها الإسلام على أرض الواقع.

وارتباط الإسلام بهذه الوحدة الإسلامية, وتلك الفكرة العالمية يحل لنا مشكلات كثيرة طرحها الفكر المعاصر, وهي فكرة الوطنية, وفكرة القومية بالمعنى الضيق بحدود دولة ما. ففي ظل هذا المعنى المتسع الشامل يرادف الإسلام فكرة القومية, وفكرة العالمية وفكرة الوطنية بحيث يصبح الإسلام أولا وأخيراً هو الوطنية وهو, القومية, وهو العالمية. ويعبر الشاعر الإسلامي عن هذا المعنى في صدق إذ يقول:

ولست أرى سوى الإسلام لي وطنا الشام فيه ووادي النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله في بلد عددت أرجاءه من لب أوطان

وهذا المعنى ليس يوتوبياً. وإنما قد تحقق في التاريخ بالفعل حينما لم تكن العالمية والإخاء الإنساني الشامل لكل البشر معروفة في غير المفهوم الإسلامي, فلقد كان المسلم يحس إحساساً

عميقاً بالمهانة إذا ما احتل بلد من بلاد المسلمين في أية بقعة من الدنيا. وهذا الإحساس العميق لم يقف عند حد البكاء أو التباكي؛ وإنما كان يجد متنفسة الطبيعي في إعلان الجهاد المقدس. فتتكون الجيوش من كل بلاد المسلمين لدرء الخطر المحيق بأي بلد إسلامي. بل كان العالم الإسلامي يعلن الجهاد المقدس بمجرد سماعه بإهدار دم أي مسلم بدون وجه حق على أية أرض.

إن قصر الوحدة العربية. وبالتالي الثقافة الإسلامية على حدود ضيقة معينة يتنافى مع منطق التاريخ, بل أنه يتنافى مع جوهر الإسلام ودعوته. فلقد حمل أمة محمد مهمة الدعوة إلى الإسلام, ومهمة الانفتاح العالمي لا الانغلاق الإقليمي.

إن قصر الوحدة العربية على حدود ضيقة معينة يقضى على ميزة من أهم مميزاتها وعلى ميزة من أهم مميزات العصر الحديث وهي الانفتاح العالمي, والانتماء لمجموعات كبيرة من البشر تقوم على مجموعة من القيم ومن المبادئ ومن المثل المشتركة. وهذا يتوافر في الأمة الإسلامية,وما أكدته من وحدة وشعور وترابط أثبتته الحقيقة التاريخية . كما سبقنا به كل دعوات العصر ابتداء بالشيوعية العالمية والتكتلات الرأسمالية والأحلاف السياسية والعسكرية والوحدات الاقتصادية والقومية, وانتهاء بالأمم المتحدة التي تغذي ميثاقها ولو من الناحية النظرية على كثير من الاتجاهات الإسلامية . و على اقل تقدير على الاتجاهات التي وجهت إليها الديانات السماوية كلها من تآخ بين البشر جميعا ومن سلام دائم, ومن حب وتعاون, ومن مواساة بين الشعوب وبين البشر جميعاً... الخ . وهي تلك المبادئ التي تضمنها الإسلام وحفظها للرسالات السابقة له.

ماذا على التربية إذن أن تفعله إزاء هذه القضية وإزاء القضايا المتفرعة منها؟.

ماذا تفعل التربية إزاء تلك المفاهيم التي بثتها بعض الأفلام, وبعض الشخصيات, وبعض القوى في تلك المنطقة التي تشكلت فيها (الأمة الإسلامية) منذ البداية. وهي تلك المفاهيم التي تؤكد على القومية العربية محاولة أن تحل هذه المفاهيم المفتعلة وما يرتبط بها محل مفاهيم الأمة الإسلامية قاصدين بذلك إلى تحقيق عدة أمور أهمها:

- إحلال (الثقافة العربية) محل (الثقافة الإسلامية).

- إحلال الرباط القومي محل الرباط الإسلامي المتين.

- إحلال الوحدة العربية محل الوحدة الإسلامية.

وإظهار فكرة العروبة وكأنها بديل للإسلام, والرباط العربي وكأنه بديل للرباط الإسلامي قد مزق إلى حد كبير تجسيد الوحدة الإسلامية, بل جر إلى تمزيق في داخل الأمة العربية نفسها,وبضياع الرباط سهل على الأقليات أن تشق طريقاً في داخل (الأمة العربية ذاتها).

وساعد على ذلك تلك الكتابات التي أرست هذه المفاهيم العربية وساعدت على سريانها في محتوى المناهج الدراسية. بل إن تقلص الدراسات الإسلامية تقلصاً شديداً إلى الحد الذي أقتصرت فيه على (مادة الدين) أو (التربية الإسلامية) في التعليم العام كانت نتيجة طبيعية لهذه الكتابات والقوى التي قصدت أضعاف الرباط الإسلامي والثقافة الإسلامية.

وكان من نتيجة ذلك أن المناهج القومية ومناهج المواد الاجتماعية ومناهج اللغة وربما غيرها من المناهج قد وظفت لترسيخ مفاهيم إقليمية أو لا, ثم قومية ثانية دون أن تجد عوامل ربط بينها وبين الرباط الإسلامي ومفاهيمه وثقافته التي تجسدت في واقع الأمة الإسلامية ترجمة للفكر الإسلامي.

وإذا كانت التربية المدرسية تلعب مثل هذا الدور الإقليمي ترسيخاً وتعميقاً فإن التربية أللامدرسية هي الأخرى تلعب مثل هذا الدور. والمتتبع والمحلل لبرامج ووسائل الإعلام المختلفة يجد ذلك بشكل أوضح. والمحلل للثقافة الأسرية والتربية التي تنقل بها هذه الثقافة للأبناء يجد أنها بعد أن كانت تلعب الدور الرئيسي في نقل (الثقافة الإسلامية) إلى الأبناء أصبحت تؤكد المفاهيم الإقليمية الضيقة.

والدليل على أنها كانت تلعب دور هاماً في حفظ الثقافة الإسلامية يمكن أن نلمسه إذا رجعنا قليلا إلى الوراء لنرى كيف لعبت الأسرة الإسلامية دورها في هذا الحفاظ على الإسلام, ومن أمثلة ذلك ما قامت به الأسرة المصرية أيام الاحتلال الفرنسي والأحتلال البريطاني وما قامت

به الأسرة الجزائرية أيام احتلال فرنسا للجزائر. فبينما اقتطعتها فرنسا من بلاد المسلمين وضمتها إليها كمقاطعة منها. وأحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية, وحاولت إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة الإسلامية والثقافة العربية, فإن الثقافة الإسلامية لم تنهزم أمام الثقافة الفرنسية, وبقيت صامدة أمام الثقافة الفرنسية في حين اختفت اللغة العربية ـ أهم عنصر في الثقافة العربية من كثير حياة الجزائر. ونستطيع القول بأن الثقافة الإسلامية التي انتصرت في الصراع الدموي في الجزائر هي ثقافة لا تقهر ومن تمسك بها فإن مكونات الشخصية الإسلامية والروح الإسلامي تبقى صامدة.

أما الدليل على أنها لم تعد تلعب هذا الدور بنفس الفهم والقوة ما نجده في الشباب العربي الآن حيث لم تعد مثل هذه المفاهيم واضحة عن كثير منهم.

خصائص الثقافة الإسلامية

تساءلنا قبل ذلك عن سر ارتباطنا بها, وأجبنا إجابة سريعة عن هذا التساؤل والواقع أن هذه الثقافة لها من الخصائص العميقة, ومن الجاذبية الإنسانية, ومن الإغراء الدنيوي والأخروي ما يدعو إلى البحث في أسرارها ومكوناتها. فإذا ما عرفنا بعضها زلت عنها الدهشة التي نصاب بها حينا نقرأ عن هجرات تمت من بلاد كثيرة إلى المدينة في العهد النبوي... هجرات من الديلم وفارس, ومن البحرين, ومن اليمن, ومن مصر ومن الحبشة, ومن عمان, ومن حضرمرت, ومن الشام,١[1] مشدودين إلى هذه الثقافة... إلى هذه الرسالة الإسلامية. كما تزول عنا الدهشة حينما نطالع أن بلداً عريق الحضارة والثقافة مثل مصر يتطلع إلى ثقافة الإسلام وحضارته, ويقابل أوائل الحاملين لها بالترحاب, والمعانقة لهذه الخصائص الثقافية والحضارية.

ولقد حملت هذه الثقافة إلينا جميع المبادئ والقيم التي ناضلت إليها البشرية عبر عصور التاريخ كلها وما زالت من حرية, وإخاء, ومساواة, وعدل في صور مجسدة على مستوى الإنسان الفرد, ومستوى المجتمع.

ـ كما حملت الثقافة جميع القيم الأخلاقية التي يتشوق إليها الذوق الإنساني والمنطق البشري متفقاً في ذلك مع المنطق الإلهي لخالق هذا الكون من معروف, وخير, وفضيلة, وإحسان, وإيثار, وتراحم, وحق, وجمال يتسم بها الفعل الإنساني.

ـ كما حملت إلينا حوافز العمل العقلي, والعمل الحركي في صورة يتفق فيها الذكاء الإنساني فيبدع, ويكتشف أسرار الكون الطبيعي, ويسخرها لعمارة الأرض. وفي صورة تصفو فيها بصيرته

١[١] عبد العزيز كامل نظرة الرسول إلى الإنسان مقال في العربي, سبتمبر ١٩٧٧ ص ص١٤ ـ ١٩.

فيكتشف ما وراء الكون من أسرار وفي صورة يرتبط فيها إتقان العمل وإجادته بالإخلاص فيه والثواب عليه في الدنيا وفي الآخرة.

ـ كما حملت إلينا أسمى آيات التكامل بين عمارة الدنيا وكسب الآخرة. فجعلت العمل للدنيا وكأنما نعيش فيها أبداً, والعمل للآخرة وكأنما نستقبلها غداً.

ـ كما حملت إلينا أسمى آيات التوازن والتوسط (خير الأمور الوسط والبعد عنه شطط).

ـ كما حملت إلينا صورة للحياة النظيفة الشريفة السامية تتحقق في عالم الواقع الاجتماعي فيسود العدل والأمن والاستقرار حياة الجماعة.

ـ كما حملت إلينا قوة تأثيرها في مخاطبتها للعقل البشري, والعاطفة الإنسانية في فرديتها, واجتماعيتها, وفي مخاطبتها للضمير الإنساني في أعماق أعماقه.

ـ كما حملت لنا اليسر والبساطة في كل أمور الحياة مع الجدية والحزم فيها.

ـ كما حملت لنا نماذج التفكير ونماذج من الفكر العبقري المعجز البسيط فهمه واستيعابه وممارسة الحياة في نطاقه.

ـ كما حملت لنا نماذج من التعبير اللغوي مستخدمة أرقى الصور, والمعاني والتشبيهات والمشاهد الحية المتحركة الناطقة في إيقاع موسيقي خلاب يهز أعماق الإنسان ووجدانه. ولذلك فقد جاءت إلينا لغة الثقافة الإسلامية مختلفة تماماً عن لغة الثقافة الجاهلية في محتواها ومبناها. مع أن اللغتين يطلق عليهما اللغة العربية إلا أن البون بينهما غير محدود بكل مقياس. ومن هنا كان عجز العرب عن أن يأتوا بآية من آيات القرآن الكريم مع أن الله سبحانه وتعالى قد قال فيه: **(إنا أنزلناه قرآناً عربياً)**.

ولهذا عشقنا الثقافة الإسلامية عن حب ورغبة, ولم نقاومها, وليس في نيتنا أن نرفضها في أي وقت في المستقبل. ومع المحاولات الشرسة للنيل منها فقد بقيت منهاجاً يتبع, وأسلوباً يمارس, وروحاً يملأ العقل والوجدان بالفكر وبالثقة وبالتجديد المستمر.

هذه بعض خصائص الثقافة الإسلامية, وما تثيره من قضايا فكرية, وما تلقيه من مطالب على تربية الناشئين والشباب وغيرهم من أبناء هذه الأمة الإسلامية.

الثقافة الإسلامية والتربية:

والأسئلة الآن التي يطرحها هذا البحث فيما يتعلق بتربية الناشئين والشباب هي:

ـ أما آن للتربية أن تدرك هذه المعاني فتنسج لها إطاراً فكرياً متمثلا لمفاهيم هذه الثقافة الإسلامية حتى يتربى أجيال أمتنا في كنفها؟.

ـ أما آن للتربية أن تضمن أهدافها هذه الأفكار, وأن تشبع مناهجها بقيم هذه الثقافة الإسلامية, واتجاهاتها, وأساليبها السلوكية؟.

ـ أما آن للتاريخ, وللغة وللمواد الاجتماعية والقومية, وللعلوم الطبيعية أن تدرس في إطار الفكر الإسلامي, وأن تنسج القيم الإسلامية العلمية والأخلاقية محتوى هذه المناهج الدراسية, بحيث يكون القرآن والسنة مصدرين أساسيين لمناهج كثير من الدراسات اللغوية, والفقهية, والقانونية, والتاريخية, والكونية, والأدبية, والفنية.

ـ أما آن (لتربيتنا) أن تتحرر من الأفكار التي تناقض الأفكار الإسلامية, وتعوق وضوحها أمام المربين والمتعلمين على حد سواء؟.

أما آن (لتربيتنا) أن تدرك أن كثيراً مما يتناقض مع فكرنا الإسلامي هو من وضع أعداء الأمة الإسلامية الحاقدين عليها, والمضمرين السوء لها باستمرار, والمجندين للمخدوعين من أبناء هذه للأمة لكي يتبينوا هذه الأفكار المتناقضة لفكرنا الإسلامي .

أما الأسئلة التي يطرحها هذا البحث فيما يتعلق بالتربية غير المدرسية بصفة خاصة على النحو الذي تحدث فيه في الأسرة, ومن خلال الوسائط الثقافية كوسائل الإعلام والأندية وغيرها فهي كثيرة منها:

ـ ماذا يمكن أن تقدمه التربية للأسرة؟. وكيف؟. حتى تنهض برسالتها الإسلامية؟.

ـ ماذا يمكن أن تقدمه وسائل الإعلام والأندية من تثقيف إسلامي حتى تقوم بدور ما في بناء ثقافة الأمة الإسلامية من جديد؟. وكيف تقدمه؟.

إن هذا البحث إذ يقف عند طرح هذه الأسئلة فإن أبحاثاً أخرى للباحث قد عالجت بعض جوانب الفكر التربوي الإسلامي٢[2], وهي تلك الجوانب التي وضحت فيها هذه المفاهيم, وما نلقيه على التربية من مطالب يتحتم الاستجابة لها من أجل بناء كيان الأمة الإسلامية كقوة عالمية في هذا العصر الذي أصبحت فكرة العالمية من أقوى اتجاهاته. والنتيجة الحتمية في صف من يثبت قدرته على تحقيق هذه العالمية.

ومع أن صياغة الأسئلة في أي بحث لا تقل أهمية عن الإجابة عنها, فإنه يجدر بنا هنا أن نضع تصوراً عاماً بسيطاً لاتجاه الإجابة عن مثل هذه الأسئلة.

أولا ـ بالنسبة لأهداف التربية: فمن الضروري أن تصاغ مشتقة من المصدرين الأساسيين للإسلام, وهما القرآن والسنة, بحيث تكون هذه الأهداف محتوى الفكر التربوي في إطار الفكر الإسلامي وبحيث يكون هدف التربية النهائي هو إعداد الإنسان المؤمن بخالق الكون, والإنسان الذي حدد الله رسالته في صنع الحياة على الأرض وتعميرها.

وفي سياق هذا الهدف العام تتحدد الأهداف النوعية والجزئية والخاصة بكل مرحلة, وكل صف, وكل تخصص تربوي, وكل خبرة تربوية بحيث تستبطن هذه الأهداف جميعاً قيم هذا الإسلام, وأخلاقه ومناهجه, وطرائقه, وأساليبه.

ثانياً ـ بالنسبة لمحتويات التخصصات المختلفة: فمن الضروري أيضاً أن تبنى محتويات هذه التخصصات بحيث تتمثل قيم هذا الفكر الإسلامي.

فمحتوى اللغة العربية ينبغي أن يكون مستبطنا لقيم الإسلام وأخلاقه ومثله العليا وفكره بوجه عام.

٢[٢] انظر " مفاهيم تربوية في الإسلام " للباحث.

كما أن أمثلتها واستشهاداتها ينبغي أن تكون من القرآن الكريم والسنة المحمدية. فالأمثلة التي تضرب في النحو والصرف والبلاغة والبيان ينبغي أن تكون من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة والتابعين. ويمكن أن تختار نماذج من الشعر العربي, ومن النثر العربي مما تتفق في محتواها وآدابها مع آداب الإسلام ومثله العليا وقيمه المختلفة. ذلك محتوى اللغة العربية في إطار الإسلام متفق في قيم ومختلف في قيم أخرى مع الأدب الجاهلي قبل الإسلام, ويمكن أن ترجأ الدراسة المقارنة بينهما إلى المراحل العليا من التعليم بعد أن يتكون في الناشئة والشباب قيم الإسلام ومثله العليا.

ولما كانت اللغة_أي لغة_ هي المعبرة اللفظية عن محتوى الثقافة وعناصرها, ولما كانت ثقافة الإسلام مختلفة عن الثقافة العربية الجاهلية, فإن اللغة في كليهما لابد وان تختلف مبنى و هدفا, وهذا ما يختلط على بعض المفكرين والتربويين الذين يصيغون ويبنون مناهج اللغة العربية وآدابها في مراحل التعليم المختلفة.

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بأن كتب القراءة نفسها ينبغي أن تبنى في الطلاب القيم العربية في إطار الإسلام؛ بأمثلة وقصص من الآداب العربية الإسلامية, والآداب العربية التي تتفق معها مما صيغ في إطار قبل الإسلام.

ـ أما بالنسبة لمحتوى اللغات الأجنبية وكتبها فينبغي هي الأخرى أن تكون قيما إسلامية. فأهداف تعليم اللغة الإنجليزية مثلا في بلادنا هي إتقان التلميذ للغة تركيباً وقراءة ونطقاً واستعمالا, كما أن لها هدفاً آخر هو بناء شخصية التلميذ وقدرته على التعبير عن نفسه في إطار ثقافته هو بما تحتويه من قيم ومثل, وعلى ذلك فمحتويات كتب القراءة وكتب الأدب مثلا ينبغي أن تكون من ثقافتنا, فالقصة تكون قصة عربية إسلامية بلغة أجنبية, وكذلك أنشطتنا وأهدافنا في الحياة ينبغي أن تكون محتوى لمناهج اللغات الأجنبية بلغة أجنبية, وترجأ دراسة ثقافة أصحاب هذه اللغات إلى مراحل عليا من التعليم. وبهذا يتحقق عدة أهداف خاصة باللغة نفسها إلى جانب أهدافنا التي تمليها علينا ثقافتنا الإسلامية. ومنها أن اللغة الأجنبية التي تتخذ من البيئة والمجتمع الذي يحيا فيه الطلاب

موضوعات للقراءة تكون لغة استعمال يومي تجعل للغة معاني حياتية يعيشها الطلاب باستمرار فتتأكد عندهم اللغة ويسهل عليهم تعلمها...الخ.

وما يقال عن محتوى اللغات الأجنبية والعربية يمكن أن يقال بالنسبة لمحتويات المواد الاجتماعية, فالتاريخ ينبغي أن يعاد صياغته بحيث يبرز القيم الإسلامية التي ناضل المسلمون من أجلها ونشرها في العالم منذ جاء الإسلام كرسالة عالمية للعالم كافة. كما أن حوادث التاريخ ينبغي أن تفسر في ضوء الفكر الإسلامي وقيمة.

والجغرافيا ينبغي هي الأخرى أن تدرس في ضوء المعاني والفكر الإسلامي. فالأرض والحدود والنشاط البشري يمكن أن تعالج في ظل هذا الفكر الإسلامي, وكذلك بالنسبة لبقية المواد الاجتماعية يمكن أن تجد لنفسها معاني وأهداف جديدة في ضوء هذا الفكر.

ـ ومحتوى التخصصات العلمية ـ الطبيعية والكيميائية ـ ينبغي علاجها في ارتباطاتها بخالق الكون ومبدعه, وارتباطها بقيم الفكر الإسلامي الخلقية, والعلمية, والإنسانية. حينئذ نضمن عدم انحراف أهداف العلم الطبيعي وتوظيف نتائجه في إفناء البشرية من أجل الاستغلال والقهر. ونضمن أن تكون أهدافه في خدمة البشرية وعمارة الأرض وتقدم الحياة وخدمة القيم وصيانتها ونشرها على ربوع العالم.